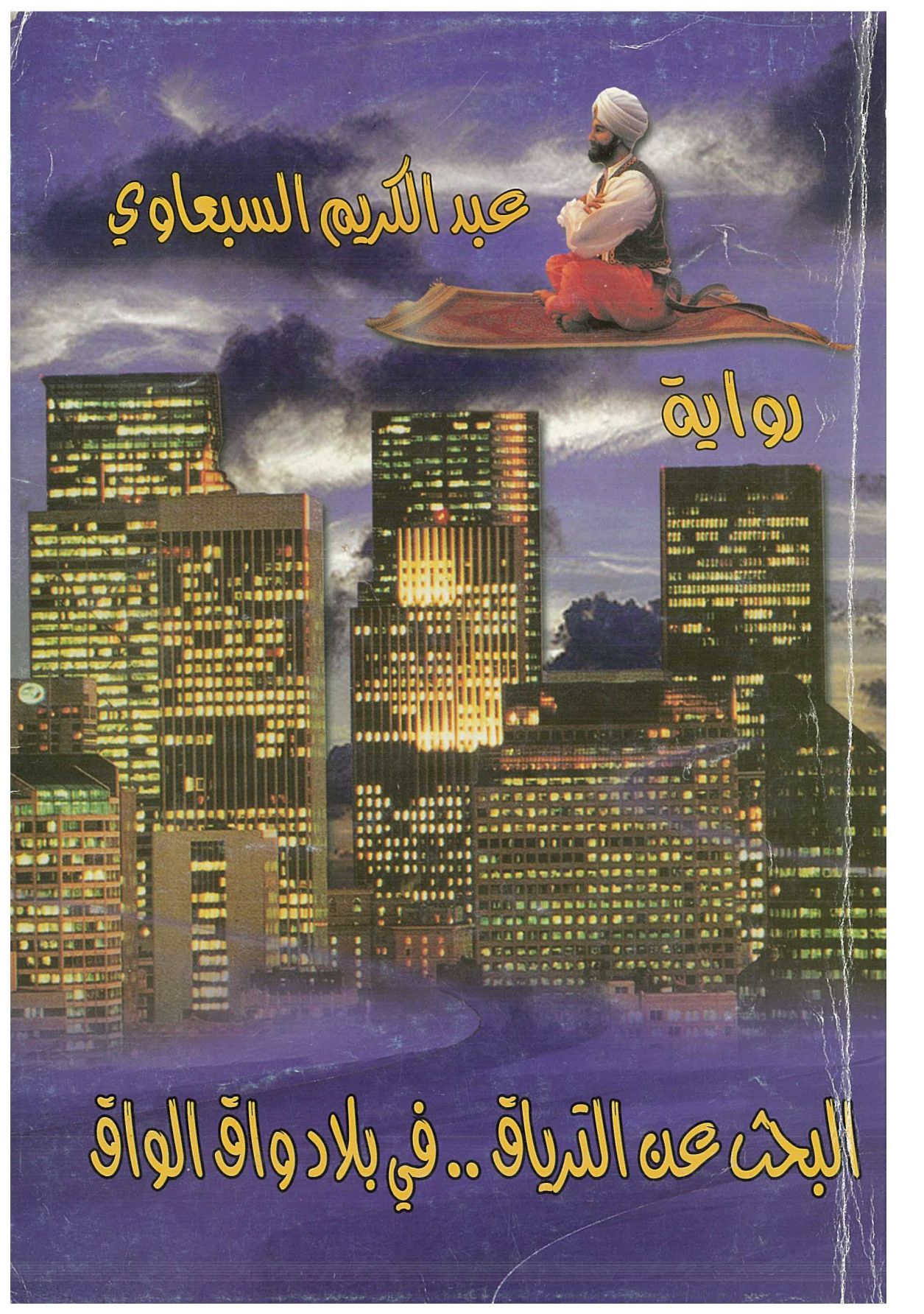
عبد الكريم السبعاوي
رواية
البحث عن الترياق .. في بلاد واق الواق

رواية

البحث عن الترياق ..
في بلاد واق الواق

عبد الكريم السبعاوي

لوحة الغلاف هدية من الفنان

فايز السرساوي

إلى الفلسطيني الرائع ..

طفـــــلاً ..

و يافعـاً ..

و شـــاباً ..

و كهلاً شهيداً ..

إلى شقيقي عبد المعطي

(١)

تابع عبد الحميد صعوده إلى أعلى الهضبة ٠٠ عبر سفح معشب ٠٠ امتد تحت أقدامه ٠٠ مثل بساط من السندس ٠٠ رفوف العصافير الملونة ٠٠ كانت تحط أمامه ٠٠ ثم لا تلبث أن تطير ثانية ٠٠ ناشرة ألوانها قوس قزح .

وصل إلى أعلى الهضبة ٠٠ أطل باتجاه المحيط ٠٠ كانت الأمواج الضخمة تتحطم على صخور الشـــاطئ ٠٠ النوارس تشرد في المدى الأزرق ٠٠ بيضاء لامعة كأنها خلقت تواً من نثار الزبد .

هبت نسمات دافئة تبشر بشتاء أسترالي معتدل ٠٠ بزغت الشـــمس بـــين غيمتين فاستحال المكان لوحة تحرك القلب .

قال عبدالحميد لسمسار العقارات الذي يرافقه :

- حسبت أنها ستمطر اليوم بطوله .

- ملبورن امرأة متقلبة المزاج يا سيدي ٠٠ ولدينا مثل شائع يقول (إذا لم يعجبك طقس ملبورن انتظر دقيقتين) .

حطت ككبرة على شجرة بلوط قريبة وبدأت إنشادها ٠٠ أغـــرى الـــدفء عائلة من السناجب بمغادرة بيتها الحصين في جذع البلوطـــة ٠٠ انســـابت علـــى الأرض المعشبة والمرعية حديثاً ٠٠ شبت السناجب علـــى أقـــدامها الخلفيـــة ٠٠ ورفعت رؤوسها في الهواء ٠٠ تتشمم القادم الجديد ٠٠ وتجلوه بعيونها الوسيعة .

تأملها عبد الحميد وخاطبها ٠٠ بصوت احتفالي :

- سيكون نهاراً مشمساً ٠٠ أليس كذلك أيتها السناجب ؟؟.

استدار ليرى المنظر من خلفه ٠٠ كانت السهول الناصعة الخضرة تنحدر تدريجياً حتى تلامس سفوح التلال التي تكتنف المكان ٠٠ مكللة بالغابات الداكنة ٠٠ ومن خلفها الجبل المهيب شامخاً ٠٠ راسخاً ٠٠ يدثر كتفيه بالسحب .

العجول الصغيرة راحت تتقافز حول أمهاتها ٠٠ أو ترضع أثداءها المكتظة بالحليب ٠٠ في دعة وطمأنينة .

تنفس ملء رئتيه هواء الريف النقي ٠٠ فانتعشت روحه ٠٠ رأى لوحة صغيرة مثبتة في مكان ممهد ٠٠ اقترب منها وقرأ " أوسبري بارك " .

قال المستر تايلور :

- المستوطنون الأوائل أطلقوا على المكان هذا الاسم ٠٠ نسبة لنسور الأوسبري التي كانت تطير مع تعرجات الشاطئ ٠٠ وتحط على أعلى الهضبة .

حلق عبد الحميد من شاهق تحليقه تليق بأحد نسور الأوسبري ٠٠ استفاقت في صدره شاعرية خمدت أمداً طويلاً ٠٠ صعدت إلى شفتيه قصائد نسيها ٠٠ ومطالع أعجزته ٠٠ ومعان ما كان ليدركها من قبل .

أحس أن ما ضاع من عمره لم يضع سدى ٠٠ وأن ما بقي منه كاف لصنع المعجزة .

أشار المستر تايلور حوله :

- التلال ٠٠ والجبل الذي يظهر خلفها بكل منحدراته حتى الوادي الكبير كل ذلك يدخل ضمن حدود المزرعة .

تقدم السمسار إلى المكان الممهد :

- لقد مهدوا هذا المكان لإقامة قصر باذخ يليق برجل مهم مثلك يا سيدي .

- ماذا عن السعر ؟

- يريدون مليونين ونصف مليون ثمناً لهذه المزرعة .

أدرك مستر تايلور بحكم تجربته الطويلة أن السنارة قـد غمـزت ٠٠ وأن السمكة الكبيرة على وشك التهام الطعم ٠٠ فشد الخيط شدة قوية .

– تلقوا بالأمس عرضاً بمليونين وربع ٠٠ أخشى أن تفوتنا الفرصـة ٠٠ إذا لـم نحسم الأمر بسرعة .

أجاب عبد الحميد :

– حُسم الأمر ٠٠ سأشتري بالسعر الذي يطلبونه .

رقص قلب تايلور فرحة بانتصاره الحاسم ٠٠ ها هي العمولة الضخمة التي يحلم بها ٠٠ تتحول إلى حقيقة ٠٠ ابتلع ريقه وتابع ملهوفاً :

– والمواشي يا سيدي ٠٠ إن بها ستمائة بقرة فتية ٠٠ مائتان منها علـى وشـك الولادة ٠٠ أرى أن نصل بالسعر إلى أربعمائة دولار للرأس .

تمتم عبد الحميد :

– موافق ٠٠ أحضر الأوراق إلى مكتبي غداً ٠٠ سأبني بيتي هنا ٠٠ وسـأزرع حوله أشجار الفاكهة التي تركتها ورائي في حديقة بيتنا بغزة .

دار دورة كاملة ليحيط بالمكان من جميع جهاته ٠٠ استقر نظره ثانية على أمـواج المحيط ٠٠ وهي ترتطم بصخور الشاطئ ٠٠ فأطلق صرخة عوليس في الإلياذة :

– أيتها الجزيرة المسحورة لقد ألقتنا العواصف على شواطئك مرغمين .

❋❋❋

لم يكن بيتاً هذا الذي بناه عبد الحميد السلطان ٠٠ كان قصراً يليق بسلطان حقيقي ٠٠ عشـر غـرف للنوم تطل نوافذها على المحـيط ٠٠ قاعـة كبـرى للاستقبال ٠٠ تتصدرها مدفأة حطب بنيت بالطوب الأحمر ٠٠ أجنحة للضيوف ٠٠ ملاحـق للخدم ٠٠ مطبخ حديث ٠٠ ملحق بقاعة للطعام ٠٠ أعدت لاستقبال مائة ضيف في وقت واحد ٠٠ ملاعب للتنس والجولف ٠٠ وحوضاً للسباحة ألحقت به غرفة بخار تتسع لعشرين شخصاً .

جلس عبد الحميد لأول مرة في شرفة قصره يتناول قهوته ٠٠ دعى ولديه ناجي وفادي وابنتيه مي ولينا ٠٠ التفوا حوله ينصتون باهتمام :

– فعلت ذلك من أجلكم ٠٠ عن وعي كامل ٠٠ إذا كان الفقر في الوطن غربة ٠٠ فإن الغنى في الغربة وطن ٠٠ لا أريد لهؤلاء الأستراليين أن ينظروا لكم من فوق ولا أريدكم أن تنظروا لهم من تحت ٠٠ يجب أن يتم التعامل بيننا وبينهم بندية ٠٠ على أن تواجهوا الرأي بالرأي ٠٠ والحجة بالحجة ٠٠ لا تنبهروا بالآخرين ٠٠ ولا تقلدوهم تقليد العميان ٠٠ أنتم الآن في بلد متعدد الثقافات ٠٠ العرب فيه ليسو أحسن ولا أسوأ من غيرهم ٠٠ ولكنهم خيوط متميزة لا يمكن إغفالها في هذا النسيج الحي ٠٠ الذي لم يأخذ بعد شكله النهائي ٠٠ أعني شعب أستراليا ٠٠ فلنعط للأستراليين أحسن ما عندنا ٠٠ ولنأخذ منهم أحسن ما عندهم .

ارتشف قهوته التركية ٠٠ تابع صغار العجول وهي تتراكض وراء الأبقار السمينة التي ترتع هادئة وقورة تلفها قداسة الأمومة ٠٠

سحب نفساً عميقاً ٠٠ انتشى برائحة الأحراج الممزوجة بعبير الحشائش الطازجة ٠٠ وفوح الطحالب ٠٠ التي تسحقها الأمواج على صخور الشاطئ ٠٠ ثم واصل حديثه :

– عسى أن ينعكس هذا الجمال على نفوسكم ٠٠ قرأت الكثير عن تأثير البيئة على مشاعر الإنسان وذوقه ٠٠ وقدرته على الإبداع .

تابع عبد الحميد بعينيه مجرى النهر الصغير الذي يشق مزرعته بين خطين من الأشجار الداكنة الخضرة ٠٠ استقر بصره على البحر ٠٠ لاحظ أن الموج قد هدأ ٠٠ وأن زرقة البحر الصافية تتحد بزرقة السماء عند خط الأفق .

سرقته إغفاءة ٠٠ حين استيقظ لم يجد الأولاد ٠٠ انفضوا من حوله كل إلى شأنه ٠٠ ارتشف قهوته التي بردت ٠٠ استغرق في تأملاته ٠٠ الوطن لم يكن وطناً ٠٠ كان الجزيرة التي نشأت على ظهر الحوت ٠٠

أشعل السندباد النار ليتدفأ ٠٠ فاستيقظ الحوت على لسعها وغاص إلى القـــاع ٠٠ تاركاً السندباد يتخبطه الموج .

رأى نفسه طفلاً يعدو بين زروع السواقي ٠٠ غزة صارت بعيدة بعد نجم في الدب القطبي وأتاه الشعر بعد هجر طويل فغمغم :

- هذه لحظات التذكر

رجي كياني ٠٠

اضربيني كبرق يماني

أدخليني كما يدخل الرمح في القلب

واحتشدي في دمي

كهدير الأغاني

❋❋❋

(٢)

مر عام كامل على وصول عبد الحميد لأستراليا ٠٠ في الشهور الستة الأولى انشغل ببناء البيت ٠٠ وزراعة حديقة الفاكهة التي احتلت مساحة فدانين حول البيت ٠٠ وتأسيس مكتبه التجاري في أهم موقع في وسط المدينة

كان متعطشاً لكي ينخرط في مجتمعه الجديد ٠٠ اشترك في الغرفة التجارية ٠٠ ونادي رجال الأعمال ٠٠ ونادي السيارات (*R.C.V*) ٠٠ اشترك في جمعية شعراء الجاليات ٠٠ وتعرف هناك على الشـــاعرة الأرجنتينية أناّ وزوجهـــا تيدي المصور الفوتوغرافي ٠٠ اشترك في ناد للسينما ٠٠ ولكنه لم يتعرف على صديق ٠٠ أو صديقة بالمعنى المتعارف عليه عند الشرقيين ٠٠ لم يستطع أن يقيم اتصالاً دائماً ودافئاً مع أحد ٠٠ لقد حاول كثيـــراً أينما حل إيجاد مثل ذلك الصديق حتى الموظفين عنده في المكتب ٠٠ كانوا ينتهون منه مع انتهاء آخر دقيقة في الدوام ٠٠ ثم لا يأبهون له حتى لو صادفوه في الشارع ٠٠ قد يومئون له أو يهزون رؤوسهم وذلك كل شئ .

كان لمكتبه علاقات عمل بالكثير من الشركات ٠٠ المدراء يبالغون في تقديره ورعايته حتى يكمل الصفقة ٠٠ فإذا أكملها نفضوا منه أيديهم ٠٠ وبدأ في البحث من جديد ٠٠ ألحت عليه فكرة اختراق الحاجز الذي يفصله عن مجتمعه الجديد ٠٠ بحث في كل صغيرة وكبيرة تكتنف حياته ليعرف سبب فشله ٠٠ أخيراً اعتقد أن الطريقة التي ينطق بها اللغة الإنجليزية هي التي تنفر الآخرين منه ٠٠ التحق بدورة للغة الإنجليزية ٠٠ وتعلم بسرعة ٠٠ ولكنه لم يجد أحداً يحاوره في أي موضوع جاد ٠٠ الجميع في عجلة من أمرهم ٠٠ قادمون من مكان ٠٠ ذاهبون إلى مكان آخر .

وحتى في محطات المترو والباص والقطارات حيث يضطر الناس إلى الانتظار عادة دون أن يكون لديهم شئ يعملونه ٠٠ لم يبادله أحدهم الكلام إلا لماماً ٠٠ عن الطقس ٠٠ أو دوري الكرة وبألفاظ مبتسرة ٠٠ ثم يذهب السائل دون أن يعرف الجواب الحقيقي لما سأل عنه أو يأبه به .

تعقـدت أموره أكثـر بإتقانه للهجة ٠٠ فصار يبحث عن سبب لما يجري له ٠٠ قرأ في مجلة أن الثياب تترك أثرا على الشخصية وأن معظم الناس يحكمون على الشخص من طريقة لبسه ٠٠ اكتشف أن ثيابه الفضفاضة على جسده الذي يميل إلى البدانة ٠٠ تعطيه عشر سنوات إضافة إلى عمره الحقيقي التحق بمعهد لتخفيف الوزن ٠٠ بعد عام كامل فقد عشرين كيلو من وزنه وفقد جزءاً من طاقته على الصبر والاحتمال .

بدل طريقة اختياره للثياب ٠٠ صارت ثيابه أكثر حداثة ٠٠ تخلى عن المنديل في جيب الجاكيت وعن ربطة العنق الطويلة العريضة ٠٠ وعن حمالات البنطال .

صارت ألوان ثيابه زاهية وليست حكراً على الألوان الأربعة الأصلية التي أدمن ارتداءها من قبل ٠٠ ولكـن ذلك كله لم يكن ذا فائدة تذكر ٠٠ غرق في السأم ٠٠ وبدأ يشعر بالإحباط وعرف الطريق إلى البب [١] .

هناك تعرف بأول أسترالي أعاره أذناً صاغيه ٠٠ تعاطف الرجل مع مأســاة الشعب الفلسطيني ٠٠ التي تفنن عبد الحميد في عرضها على مسامعه ٠٠ حتى أنه بكى من التأثر .

١.البب : البـــار .

حسب عبد الحميد أنه كسر طوق العزلة ٠٠ وحصل على صديق ٠٠ تواعدا على اللقاء ٠٠ بكر عبد الحميد في الليلة التالية ٠٠ لكي يرى صديقه وكان ذلك خطأ كبيرا ٠٠ جاء صديقه صاحياً دون أي أثر لسكرة الليلة الماضية ٠٠ لم يستطع صديقه الجديد التعرف عليه .

أخيراً أدركه اليأس ٠٠ اصرف إلى عمله في المكتب وفي المزرعة ٠٠ وما تبقى من وقته خصصه لإلقاء المحاضرات في الجامعات ٠٠ والنوادي ٠٠ والإذاعات ٠٠ عن القضية الفلسطينية وتمنى لو استطاع التسلل إلى التلفزيون ولكن ذلك لم يتسن له ٠٠ فالصهاينة كانوا قد أحكموا قبضتهم على هذا الجهاز السحري منذ نشأته .

لم يكن ذلك حال ثريا زوجة عبد الحميد ٠٠ ففي الأسبوع الأول لوصولها أستراليا ٠٠ عينت لها حكومة الولاية مدرسة في مثل سنها لتعلمها اللغة الإنجليزية ٠٠ سرعان ما نشأت صداقة بين المرأتين حفزت المدرسة على أن تخلص في عملها وحفزت التلميذة على الاجتهاد في دراستها محاولة قدر الإمكان أن تكون عند حسن ظن مدرستها .

المهاجرات الجدد تنظم لهن دورات في اللغة الإنجليزية في المدارس القريبة من سكنهن ٠٠ أما الأمهات اللواتي لا يستطعن مغادرة المنزل فتعين لهن مدرسات في منازلهن وتنظم لهن برامج اجتماعية مرة في الأسبوع أو مرتين ليتدربن على المحادثة والتحاور مع الآخرين بلغتهن الجديدة .

حرصت ثريا على الاشتراك في هذه المناسبات الاجتماعية التي كثيراً ما جمعتها بمهاجرات جدد من مختلف الجنسيات ٠٠ كن يتحدثن بألفة ومحبة عن الطعام والعائلة والعادات وكثيراً ما كانت تنتهي هذه الحلقات الدراسية باحتفال باربكيو ٠٠ أو سناك ٠٠ حيث تحضر كل واحدة طعامها وموسيقاها المفضلة ٠٠ وبعد المشاركة في تناول الطعام يشتركن في الرقص أو الحديث .

نعمت ثريا بما توفره لها الحياة في مجتمعها الجديد من المتع البريئة حتى صارت تحس أن إقامتها في أستراليا هي نزهة طويلة سواء في البيت أو في الحديقة أو في مراكز التسويق الضخمة المكيفة صيفاً وشتاءً .

كثيراً ما اصطحبتها مدرستها إلى السينما أو إلى المسرح ٠٠ وكثيراً ما شجعتها على متابعة المسلسلات التلفزيونية مما اختصر كثيراً المدة اللازمة لها لكي تتعلم كيف تكتب وتقرأ وتنطق اللغة الجديدة .

خلال ستة أشهر فقط صارت ثريا قادرة على أن تترجم لعبد الحميد ترجمة فورية مسلسلات وبرامج التلفزيون الأسترالي ٠٠ خاصة تلك البرامج والنداءات الموجهة إلـــى المـــرأة (سيدتي ٠٠ هل أنت ضحية للعنف المنزلي ٠٠ إذا كان زوجك يصرخ في وجهك أو يضربك اتصلي بهذا الرقم) (سيدتي هل يعاني أولادك من العنف المنزلي ٠٠ القانون يكفل حماية الأطفال ٠٠ اتصلي بهذا الرقم) إلى آخر ما تتفتق عنه عقول المطالبين بحقوق المرأة وحقوق الطفل وحقوق الإنسان .

كان عبد الحميد كلما سمع هذا التحذير في التلفزيون يرفع كفيه إلى أعلى في حركة مسرحية ويهتف :

- اللهم حوالينا ولا علينا ٠٠

ثريا كانت تقدر لزوجها دماثة خلقه ٠٠ وحسن معاشرته ٠٠ وحدبه عليها وعلى الأولاد ٠٠ ولكن تقديرها له ازداد كثيراً بعد مشاركتها في الدورة الدراسية وسماعها شكاوي المهاجرات الجدد زميلاتها في الدورة ٠٠ من معاملة أزواجهن والقضية دائماً واحدة ٠٠ إغراق الرجال في تعاطي الكحول وما يجره ذلك على الأطفال والنساء من الويلات ٠٠ خاصة حين يعود الأزواج سكارى ٠٠ ولا يقبلون من زوجاتهم لوماً أو حتى تلميحاً بالضيق .

---

١. باربكيو : حفل غذاء أو عشـــاء تقدم فيـــه اللحوم المشوية .

راقب عبد الحميد التقدم الذي تحرزه زوجته ٠٠ شدما تغيرت هذه المرأة ٠٠ لقد تقاسما طفولة واحدة في حارة فقيرة ٠٠ شبا معاً كصديقين ألفين لقد أحبها ذلك الحب الهادئ الذي يقود دائماً إلى زواج ناجح ٠٠ كان يتوسل فيها الخير منذ البداية إلا أن قدرتها على العطاء والتلاؤم مع المراحل المختلفة التي مرت بها حياتهما كانت مفاجأة له بأكثر مما كان يتوقع .

قال في سره (إنها من طراز النساء الملكات ٠٠ صحيح أنني بذلت جهداً في صقلها وإعدادها ولكن أمهر الصاغة لا يستطيع أن يبدع حلية ثمينة من خامة مليئة بالشـــوائب ٠٠ ها هي تدير القصـــر على أحسن وجه ٠٠ تتحدث الإنجليزية بطلاقة ٠٠ تبهر الضيوف بحضورها الساطع وكلماتها البسيطة الطيبة ٠٠ النابعة من القلب دون تكلف أو تشاوف ٠٠ قد زاد اعجاب عبد الحميد بزوجته حين ملكت زمام اللغة ٠٠ صارت تنبري لمدرستها وتناقشها في عيوب وحسنات المجتمعين الغربـــي والشـــرقي ٠٠ إلا أن ما فاجأه حقيقة هو ميل أولاده إلى نصرة المدرسة وأفكارها التي بدت لهم عصرية ومتحررة أكثر من أفكار أمهم .

اتسع الخرق بعد تعيين مدبرة المنزل[1] ٠٠ فتاة شابة من نيوزيلاندا المجاورة لأستراليا اسمها كريستي ٠٠ كانت أكثر تحرراً من المدرسة ٠٠ وقع نظرها على المزارع باري ٠٠ فسال لعابها لاحظت عرجاً في مشيته ٠٠ سألت مي ابنة عبد الحميد :

– هل هو أعرج ؟

أجابتها مي :

– عـــرج خفيف ٠٠ أصيب به بعـــد أن حطم خصمه في حلبة المصارعة ٠٠

---

١. مدبـــرة المنـــزل : الخادمـــة .

باري كان مصارعاً وأصيب في عدة أماكن من جسده إصابات قاتله ٠٠ لكن عمر الشقي بقي .

– من أين جئتم به ؟

– حين اشترى أبي المكان وجده هنا يعمل مع المالك السابق ٠٠ عرض عليه والدي الاستمرار في العمل معنا قال : (ليس لدي مكان آخر أذهب إليه حتى لو طردتموني طرداً ٠٠ لو كنت مكانكم لما دفعت لهذا الوغد باري – وأشار إلى صدره – سنتاً واحداً مقابل خدمته) .

– هل هو متزوج ؟

– بل هو مطلق .

تنهدت كريستي وهي تسمع الإجابة ٠٠ ممنية النفس برفيق من بني جلدتها ٠٠ يبدد وحشتها بين هؤلاء الأغراب ٠٠ أما عبد الحميد فقد أيقن أن ثغرة كبيرة قد فتحت في السور الذي أقامه حول عائلته ٠٠ لقد منع الأولاد من الاحتكاك بالعالم الخارجي حتى يحتفظ بنقائهم ٠٠ ها هو العالم الخارجي يقتحم القلعة باثنين من المبشرين النشطين لقيمه ومعتقداته .

باري بطل المصارعة السابق ٠٠ طريد الحانات ٠٠ الذي لم يعرف له أباً أو أماً ٠٠ وكريستي الطروب المهووسة بمظهرها الخارجي ٠٠ والتي لم تدع مسابقة للجمال والجاذبية إلا واشتركت فيها من أيام مدرستها الثانوية حتى بلغت التاسعة والعشرين من عمرها ٠٠ تلك التاسعة والعشرين التي احتفلت ببلوغها منذ عدة سنوات ٠٠ ولم تتجاوزها حتى الآن .

(٣)

أول عربي كسر طوق العزلة حول عبد الحميد ٠٠ هو الدكتور علي زيدان ٠٠ جاء لزيارة عبد الحميد في بيته مصطحباً زوجته وبناته الثلاثة وولديه .

عانق الأستاذ علي مضيفه وصافح ربة البيت .

– داعيكم علي زيدان ٠٠ دكتوراه في الفلسفة ٠٠ مدرس جامعي سابقاً وأمين مكتبة عامه حالياً ٠٠ هذه زوجتي عفاف وهؤلاء بناتي رُلى وريما وندى وولداي شاهين ومحمد ٠٠ الجميع يجيدون العربية قراءة وكتابة ٠٠ فقد حرصنا أنا وأمهم على أن تظل جذورهم العربية خضراء .

قالت زوجته :

– ليست اللغة فقط ٠٠ ولكن العادات والتقاليد ٠٠ والأخلاق .

تابع زوجها :

– لقد سعدنا حينما علمنا بوجودكم هنا ٠٠ فهذه المنطقة يندر فيها وجود العرب ٠٠ إنهم يفضلون السكن في الضواحي القريبة من وسط المدينة حتى لا يتكلفوا الكثير في الوصول إلى أعمالهم .

تعرفت على أولادكم في المكتبة ٠٠ أنا فخور بمسلكهم ٠٠ وبسرعة التقاطهم للغة واهتمامهم بدراستهم ٠٠ لكن ذلك كله لم يكن السبب الرئيسي لهذه الزيارة .

قال عبد الحميد في سره : (ربما جاء الرجل ليقترض مني بعض المال) ٠٠ ثم تابع كأنه لم يسمع عبارة الرجل الأخيرة :

– الدراسة هي سبب هجرتنا إلى أستراليا ٠٠ ففي جامعات الوطن العربي لم يعد أولادنا موضع ترحيب كما تعلم ٠٠ لقد وصموا كل فلسطيني بالإرهاب ٠٠ وهم يسعون جهدهم للتخلص منا .

قال علي :

- إنه الزمن العربي الرديء .

- حدثني عن الفلسطينيين في هذا البلد .

- الفلسطينيون أقل الجاليات عدداً .. وأكثرهم تسيساً .

- ماذا عن باقي العرب ؟

- معظم العرب هنا لبنانيون ومصريون .

تدخلت زوجة علي :

- بل قل موارنة وأقباط .. وكثير منهم لا يعترفون بأنهم عرب .. إنهم يغيرون أسماءهم العربية وأسماء زوجاتهم وأبنائهم وبناتهم .. ويندمجون بسرعة في المجتمع الأسترالي ولولا سحنهم العربية لما تعرف عليهم أحد .

دارت أكواب الشاي .. ووضعت صحون المكسرات .

سأل عبد الحميد :

- كم عدد العرب في أستراليا ؟

- نصف مليون تقريباً .. ولكنهم فقراء ليس بيدهم شئ من مقدرات البلاد .

- و اليهود ؟

- سبعون ألفاً .. وهم يملكون كل شئ البنوك .. المتاجر الكبرى .. العقارات الهامة .. وسائل الإعلام .. وعليك أن تضع خطين تحت الأخيرة .. أعني وسائل الإعلام .. وهذا سبب زيارتي لك .

عقدت الدهشة حاجبي عبد الحميد .. ولكنه سكت في انتظار أن يوضح الضيف مقصده .

أخرج علي زيدان جريدة صغيرة (تابلويد) .. هذه جويش كرونيكل .. جريدة المجلس الملي اليهودي في أستراليا .. فتحها وقرأ :

– السيد عبد الحميد السلطان ·· رجل أعمال فلسطيني هاجر إلى أستراليا مؤخراً وأقام في ملبورن ·· ومنذ وصوله ينشـــر أفكاره المعادية للسامية ·· ويهاجم إسرائيل ·· بمناسبة وبدون مناسبة ·· باختصار فهو يسبب لنا صداعاً دائماً .

ناول الجريدة لعبد الحميد وتابع :

– أنا أحرص في المكتبة التي أعمل بها على تصفح كل الجرائد ·· وهذه منها ·· أحببت أن تعرف ما يكتبونه عنك ·· حتى تأخذ حذرك ·· فلن تترك وشأنك بعد اليوم .

– هكذا إذن ·· أنا أسبب لهم صداعاً دائماً .

– لا أريد إخافتك يا سيد عبد الحميد ·· ولكنهم هنا ·· قوة يحسب حسابها ·· وإذا لم نضع التصفية الجســـدية في حسابنا ·· فعلى الأقل قد يحاربونك فـــي رزقك ·· فاللحوم مثل كل الغلال في أستراليا تحت أيديهم ·· في اعتقادي أنهم قد بدأوا في مراقبتك فعلاً ·· وقريباً سيحكمون حولك الطوق

تذكر عبد الحميد كيف رفضت الشركات الكبرى المنتجة للحوم التعامل معه مباشرة ·· وطلبوا منه الاتصال بوكلائهم التجاريين (البروكرز) وحين جادلهم بأنه كان يفعل ذلك من مكتبه في الشرق الأوسط ·· ولن يفعل ذلك وهو في قلب ملبورن ·· هزوا رؤوسهم وقالوا بأدب بالغ (شأنك وما تريد) .

تحداهم واشترى القطعان حية ·· وذبحها على حسابه في المذابح ·· وعند التصدير ·· أعاد مراقب الصحة ثلث الكمية المذبوحة ·· لوجود عيوب في طريقة الذبح تمنع تصديرها ·· عيوب قد لا تميزها العين المجردة ·· جرح سكين في الفخذ أو كدمة في الصدر ·· أو كسر في إحدى الضلوع .

وطبعاً اضطر عبد الحميد لبيع المرتجعات في السوق المحلية بأسعار بخسة ·· وتحمل خسارة كبيرة ·· اضطرته للعودة إلى التعامل مع الوكلاء (البروكرز) وبالسعر الذي يفرضونه .

لم يشأ عبد الحميد أن يفجع صديقه ٠٠ بما جرى له ٠٠ وأراد أن يهون عليه ٠٠ فربت على يده بمودة وقال :

- لا عليك يا أخي ٠٠ سأتدبر أمري ٠٠ أنا مثل القطط بسبعة أرواح ٠٠ حدثني عن باقي الجاليات في أستراليا .

- لدينا هنا أكبر تجمع لليونانيين خارج مدينة أثينا وهم يحتكرون صيد الأسماك ٠٠ لهم باع طويل في تجارة الجملة ٠٠ خاصة الخمور ٠٠ لدينا جالية إيطالية كبيرة يعملون في الزراعة والصناعات القائمة على الحاصلات الزراعية ٠٠ ولهم أحسن مطاعم البيتزا والسباجيتي ٠٠ والملاهي الليلية ٠٠ هناك العديد من الجاليات الأخرى التي تشكل الفسيفساء الأسترالية ٠٠ أرمن ٠٠ أتراك ٠٠ ألبان ٠٠ آسيويون .

- وماذا عن التمييز العرقي ؟

- القوانين تمنع وتحارب التمييز ٠٠ لكن للأسف هناك قوانين غيـــر مكتوبة ٠٠ ولكنها مرعية أكثر .

- لا أفهم .

- الأمر يرجع لأصحاب الأعمال ٠٠ وطبعاً صاحب العمل يفضل توظيف بني جلدته ٠٠ ولأن العرب ليسوا من أصحاب الأعمال ٠٠ فإنهم يعيشون على هامش المجتمع الأســترالي ٠٠ عمال نظافة وســائقو تاكسيات ٠٠ والمحظوظ منهم لديه (ملك بار) .

- ماذا عن وظائف الدولة ؟

- وظائف الدولة متدنية الأجور ٠٠ والعرب يتركونها للآسيويين ٠٠ والأكثر تهميشاً ٠٠ أتعس أبناء الجالية الخريجون ٠٠ الذين جاءوا بشهادات جامعية لم تعترف بها أستراليا ٠٠ الأطباء عملوا ممرضين ٠٠ والمهندسون عمالاً ٠٠ والكثيرون من حملة الشهادات قنعوا برواتب البطالة .

قالت زوجة علي :

– أرجو أن تغيروا هذا الموضوع ·· فصحة زوجي لم تعد تحتمل مناقشة أوضاع العرب .

قال علي :

– كنت في اجتماع للقوى العربية التقدمية على الساحة الأسترالية ·· واشتبك الرفاق ·· وتبادلوا تهم الخيانة وشتائم من كعب الدست ·· ذكرت فيها أجزاء حساسة من جسد الأم والأخت ·· حاولت إصلاح ذات البين ليلتها أصابتني أول نوبة قلبية ·· وحملني الرفاق إلى المستشفى ·· نصحني الأطباء بعدم الانفعال قـــال لي أبو جيمي شقيق منال عنبر ·· جاء دوري لأنقذ حياتك ·· سأعلمك لعبة الطاولة ·· هنا تحارب ·· تنتصر أو تنهـــزم ·· دون أن تنفعل أو يطرف لك جفن ·· وكان بها ·· بالمناسبة ·· ألا تلعب الطاولة يا سيد عبد الحميد .

أومأ عبد الحميد برأسه .

– عال ·· إذن أحضرها من السيارة ونلعب معاً .

قام علي زيدان إلى سيارته .

انتهز عبد الحميد الفرصة ليحتفي بباقي أعضاء الأسرة ·· سأل كبرى بنات علي زيدان :

– اسمك رُلى ·· أليس كذلك ؟

– نعم .

أنشدها عبد الحميد :

– رُلـــى عـــرب قصورهـــم الخيـــام
و منزلهـــم حمـــــاة الشـــــام
إذا ضـــاقت بهـــم أرجـــــاء أرض
يطيب بغيـــرها لهـــم المقـــام

قالت رُلى :

- من المؤسف أننا في أعماقنا ما زلنا بدواً رحـــلاً ·· نحمـــل خيمنا على ظهورنا ·· ونحترف الهجرة والارتحال ·· حاملين معنا أثقال الماضي كله .

لم يأخذ عبد الحميد ملاحظتها عن العرب مأخذ الجد .

- هل تعرفين يا رُلى أن أجدادنا العرب وصلوا أستراليا ·· وأطلقوا عليها في كتبهم بلاد " واق الواق " ·· ذلك أن السكان الأصليون لأستراليا (الأبوريجنو) صرخوا في وجوههم حينما نزلوا من سفنهم : (واجا ·· واجا ·· معنى واجا في لغتهم ·· الغريب) .

العرب لم يطيلوا المكوث هنا ·· لأن السكان الأصليين لم يكن لديهم شيئاً يصلح للمبادلة ·· مع التجار العرب ·· ما الذي تدرسينه يا رُلى ؟

- الحقوق .

- في أستراليا الحقوق أصعب من الطب ·· وسنوات دراستها أكثر .

ردت بتحفز :

- الصعوبة يا عمي ليست في الدراسة ·· ولكن في الحياة وفق معايير عالمين متناقضين ·· لديك بناتك ·· وقريباً ستكتشف ما أعنيه .

أدهشته الإجابة فحملق فيها مشدوهاً ·· تابعت بهدوء :

- العرب هنا يكيلون بمكيالين ·· ففي حين يتركون للولد الحبل على الغارب ·· يحاصرون البنت بموسوعة من الأوامر والنواهي ابتداء من طول الفستان ·· وانتهاء بعدد الساعات المسموح بقضائها خارج المنزل ·· حتى لو كانت هذه الساعات مخصصة لمحاضرات الجامعة .

دخل والدها متأبطاً الطاولة فقطعت حديثها .

أرادت أمها أن تغير الموضوع :

- رُلى من الأوائل في الجامعة ·· وفي كل عام تحظى بشهادة تقدير .

علق الدكتور علي زيدان :

– الرك على التربية ٠٠ والقدوة الحسنة ٠٠ والا الأولاد بضيعوا ٠٠ وكما قال الشاعر :

ومن رعي غنماً في أرض مسبعةٍ

وغاب عنها تولى رعيها الأســدُ

فتح علي زيدان الطاولة بينه وبين عبد الحميد ٠٠ وانشغلا بترتيب أحجار اللعب .

– محبوسة .

– محبوسة .

تمتمت رُلى في سرها كأنها تتوعدهم : (محبوسة ولكن إلى حين) .

دعت زوجة عبد الحميد ضيفتها وأولادها لنزهة في المزرعة .

طرقعت زهرات النرد الصغيرة ٠٠ وبدأت الأحجار رحلتها من الزاوية إلى الزاوية ٠٠ مفسحة المجال لتبادل الحديث الذي ازداد طلاوة بين الرجلين .

– أكمل عن الجالية العربية .

– للأسف العرب المتعلمون والموهوبون هاجروا إلى أمريكا وكندا وأوروبا ٠٠ أما هنا فالعرب كادحون على الأعم الأغلب ٠٠ عمال وحرفيون وأصحاب مطاعم وبقالات صغيرة .

– دو ٠٠ يك .

– أليس للعرب نواد أو تنظيمات .

– هناك العشرات من هذه الأشياء ٠٠ فكل عربيين اجتمعا صدفة ٠٠ فتحا دكان سياسة تتبع هذا التنظيم أو ذاك الحزب في الوطن ٠٠ وقد ساعد المناخ الحر في هذا البلد على تفشي هذه الدكاكين .

– شيش ٠٠ جيهار .

- عشرات من الثوريين وأنصاف الثوريين ٠٠ ماركسيون ٠٠ وماويون ٠٠ وبعثيون ٠٠ وناصريون ٠٠ وإسلاميون متشددون ٠٠ وقوميون سوريون ٠٠ وتقدميون اشتراكيون ٠٠ وفروع ناشئة لفتح ٠٠ والجبهة الشعبية ٠٠ والديمقراطية ولا تنسى الكتائب ٠٠ والقوات ٠٠ وأمل .

- وأنت لأي تنظيم تتبع ؟

- في دمشق فصلوني من وظيفتي بالجامعة لأني حكيت في التابو[1] ضمن حلقة من تلاميذي المقربين هتف عبد الحميد بدهشة :

- أي تابو ؟!

- الديمقراطية ٠٠ واستقلال القضاء ٠٠ وحرية الصحافة ٠٠ وتعدد الأحزاب ٠٠ والتداول السلمي للسلطة ٠٠ وكل المحرمات التي لا تعجب الحكام ٠٠ فصلوني من الجامعة مع أنني كنت عضواً في حزب البعث ٠٠ من يومها تعلمت الدرس ٠٠ هاجرت إلى أستراليا ٠٠ ولم أنضم لأي حزب ٠٠ أصبحت حر نفسي .

- شيش بيش .

توقف علي زيدان عن إلقاء حجارة النرد وقال كأنه يتذكر شيئاً نسيه :

- في الشهر القادم حفلة للحزب التقدمي الاشتراكي بمناسبة عيد ميلاد الزعيم الخالد كمال جنبلاط ٠٠ فإذا كانت تراودك أحلام تحرير فلسطين من ملبورن ٠٠ فسوف أصطحبك إلى هناك ٠٠ وتبدأ الجهاد مع إخوانك في القوى التقدمية ٠٠ جهاد على الطريقة الأسترالية .

- هل نأخذ الأولاد ؟

- الحفلة " *Bring your own* " وسوف يحضر العرب مشاريبهم ٠٠ ويكون السكارى أكثر من الصاحين ٠٠ لذلك لا أحبذ وجود الأولاد .

---

١. التـــابـــو: المحـــرم .

– نترك الأولاد معاً في المزرعة ونذهب بزوجتينا فقط .

– اتفقنا .

انتهى الدق بهزيمة عبد الحميد ٠٠ فعلق ضاحكاً :

– أنت ضيفنا وليس من شيمة الكريم أن يهزم ضيفه ؟

– هيك لكان !؟

ضحك الأستاذ علي وأغلق الطاولة ٠٠ دعتهما الزوجتان إلى العشاء ٠٠ فخفا مسرعين ٠٠ التأمت العائلتان حول المائدة التي حفلت بما لذ وطاب .

(٤)

كانت القاعة فسيحة يغلب عليها طابع الفخامة ٠٠ تتدلى الثريات من سقفها الشاهق ٠٠ وتوزع شلالات الضوء في كل مكان ٠٠ الموائد مرتبة وحافلة بالأطعمة والمازات اللبنانية ٠٠ المدعوون أحضروا مشروباتهم وأراجيلهم وانصرفوا للاستمتاع بوقتهم .

تألقت صدور النساء ونحورهن في أحدث أزياء الموضة ٠٠ والتمعت عليها الحلي والإكسسوارات في نسق ينم عن ذوق رفيع .

تأمل عبد الحميد الرجال في بزاتهم العصرية وأناقتهم المفرطة ٠٠ همس في أذن صاحبه :

– تبصر في وجوههم نضرة النعيم .

رد علي زيدان :

– لا تستعجل الحكـــم ٠٠ فهؤلاء يشتغلون أسابيع طويلة في أشغال تكاد تكون شـــاقة ٠٠ لكي ينعموا بليلة كهذه ٠٠ يعيشون فيها الحلم الأسترالي الذي لم يتحقق لأي منهم بعد ٠٠ أعني الثروة والجاه ٠٠ وحياة الدولشى فيتا .

طاف به علي زيدان على موائد أصدقائه العرب والأجانب ٠٠ توقف طويلاً عند المائدة التي تضم ممثلي المنظمات الفلسطينية .

هـــؤلاء مندوبـــو اتحاد عمال فلسطين فرع ملبورن طوني ويوسف وميشيل ٠٠ على الناحية الأخـــرى ممثلو الجبهة الشـــعبية أعضاء النادي العربـــي الفلسطيني أبو نصوحي وجمال ابن صبحي المزين الشهير بجيمي وعلى رأسهم رئيس النادي

لطفي عواد وزوجاتهم ٠٠ وعلى هذه الطاولة فلسطيني مستقل ولكنه نشيط في خدمة قضية بلاده ٠٠ ورغم أنه مدرس كيمياء ٠٠ إلا أنه مثقف ثقافة قلما تجدها في أبناء هذه الجالية ٠٠ اسمه سعيد غيث .

تأمله عبد الحميد ٠٠ رجل في الأربعين من عمره ٠٠ معتدل القامة إلا أن له جسماً رياضياً ٠٠ ووجهه يميل إلى السمرة ٠٠ ملامحه توحي بالطمأنينة ٠٠ عانق عبد الحميد ورحب به كما يفعل أبناء الوطن الواحد وقدم له زوجته وأولاده .

انتقلوا إلى مائدة أخرى .

- هذا عمـــر الشحات رئيس الجمعية الإسلامية في ملبورن وهو فلسطيني من القدس ٠٠ وهذه المحجبة إلى جواره زوجته ٠٠ وهؤلاء أولاده .

تأمله عبد الحميد فوجده قصيراً قميئاً ٠٠ وجهه يميل إلى الدمامة ٠٠ يعلق على شفتيه ابتسامة صفراء لا تدعو إلى الطمأنينة ٠٠ أما زوجته فبدا جسدها الضخم داخل عباءتها السوداء مثل غرارة من الفحم .

أرادا العودة أدراجهمـــا لكن امـــرأة مكتنزة مليحة الوجه لوحت لهما من بعيد ٠٠ كانت تجلس في الركن ٠٠ لاحظ عبد الحميد أرجيلتها المطهمة ٠٠ قال له علي زيدان :

- هذه منال عنبر ٠٠ لا تكتمل معرفتك بالجالية دونها .

قاده إلى حيث تجلس ٠٠ نحت نربيش الأرجيلة جانباً ووقفت للسلام ٠٠ كانت أميل إلى القصـــر ٠٠ ممتلئة الجســـم ٠٠ تناهز الأربعين من العمر ٠٠ سمراء ٠٠ جذابة ٠٠ تشـــع من عينيها نظرة متسلطة ٠٠ عانقت علي زيدان وصافحت عبد الحميد بحرارة ٠٠ خلفها وقف زوجها وقد شبك ذراعيه على صدره منتظراً أن تقدمه للضيوف ٠٠ أخيراً أفسحت له المجال .

هذا زوجي أبو الصخور .

عانقهم أبو الصخور وبالغ في تحيتهم ٠٠ أنبته زوجته :

– حاجتك إبن عمي ٠٠ كتر السلام بقل المعرفة .

بعد أن تجاوزا الجميع قال علي زيدان :

– سعيد غيث آدمي ٠٠ وجمال ماركسي متحمس ٠٠ و أبونصوحي نصاب يحلب النملة ٠٠ له ملك بار قريب من جامعة الأولاد ٠٠ زوجته صديقة لزوجتي ٠٠ وتتزاوران أحياناً ٠٠ عمر الشحات فاسق يتستر بالجمعية الإسلامية ٠٠ والدليل وجوده وعائلته بين هؤلاء السكارى ٠٠ إن أعضاء الجمعيات الإسلامية يتعففون عن حضور الحفلات التي يقدم فيها المشروب عادة .

حين استقروا على مائدتهم ٠٠ بدأ الآخرون بالتوافد عليهم لمزيد من التعارف ٠٠ أول الواصلين كان (أبو أيمن) عميد الجالية الدرزية رجل متوسط الطول نحيف أسمر ٠٠ تغلب على مزاجه العصبية :

– يا هلا ٠٠ بنرحب فيكم بملبورن ٠٠ وبنحطكم في عيونا ٠٠ إبقو زورونا ٠٠ هادا العنوان .

مد يده ببطاقة عليها عنوان الملك بار الذي يملكونه في الضواحي ٠٠ ثم تابع :

– بيتنا ورا الملك بار ٠٠ ما رح نتكلف اكتير ٠٠ ضيافتكم من خير الله ٠٠ وبنسقيكم (متّى)[1] وبنقرقر معاكم في السياسة تايطلع النهار .

شكره السلطان بحرارة ٠٠ بعده جاء الكثيرون ٠٠ ولكن الوحيد الذي سحب كرسياً وجلس إلى مائدتهم دون كلفه هو قدري شاميه ٠٠ تأمله عبد الحميد عن قرب ٠٠ كان طويلاً ٠٠ بديناً ٠٠ أصلع .

بادرهم في الحديث عن نفسه :

– أنا مش فلسطيني ٠٠ بس محسوب على الفلسطينية .

---

١. المشروب التقليدي للدروز ٠٠ مستحضر من نبات يشبه التبغ ٠٠ ينبت في الأرجنتين

تدخل علي زيدان :

– الأخ قدري شامية ٠٠ عرفتك عليه قبل قليل .

رد عبد الحميد :

– طرابلسي ٠٠ عضو الحزب الشيوعي اللبناني .

تابع علي :

– نعم ٠٠ وسياسي ناشط في أوساط حزب العمال الأسترالي والأحزاب اليسارية الأخرى في أستراليا وهو أول من رفع علم فلسطين أمام البرلمان ٠٠ وقاد التظاهرات الصاخبة بعد هزيمة ٦٧ وجمع التبرعات لعبد الناصر ٠٠ وهو إلى ذلك رجل أعمال ناجح ٠٠ إنه يمتلك مصنعاً لتعبئة علب الفول والحمص ٠٠ وعجينة الفلافل .

قال عبد الحميد :

– سجل ناصع لمناضل شريف .

رد قدري بتواضع جم :

– يا عمي سيبك من الحكي أنا زلمة درويش ٠٠ بديت حياتي سواق تاكسي ٠٠ وبعدين اشتريت مطعم سفلاكي صغير في السيتي ٠٠ وعملت فيه ركن فلافل وإجت مع العميان صيب .

قال علي زيدان :

– الأسترال يحبون التعرف على أطعمة الشعوب الأخرى ويعزفون عن التعرف على ثقافتها ٠٠ إنهم بأغلبيتهم غير معنيين بالثقافة ٠٠ اقصد مثل عنايتهم بالكرة والطعام ٠٠ والشراب ٠٠ والرقص والغناء ٠٠ والجنس .

أفرغ قدري ما بقي من كأسه دفعة واحدة ٠٠ ثم لعلع بصوته كأنه يخطب في عمال الميناء في طرابلس .

– هدولا الأسترال الواحد منهم ما بعرف طعمة تمو من طعمة طيزو ·· أجلّك ·· أنا كنت سواق تاكسي وعمري ما سلقت بيضة ·· فتحت المطعم ·· وعملت فلافل ·· تطلع محروقة يقولولي دلشس ·· تطلع نية يقولولي دلشس ·· مالحة بلا ملح دلشس ·· بعد شهر مر عليي عربي ·· داق قـرص فلافل ·· شحط بزورو ·· طل في المقلى وقاللي (هيك وهيك لأختك ·· لك غيـر هالزيت ·· لونو أسود مثل زيت السيارات) ·· عندها تنبهت إلى أني لم أغير زيت المقلى منذ افتتاح المطعم .

همس علي زيدان :

– أكيد الزبون إللي كان يقع في إيدك ·· ما كان يرجع ثاني ·· أما حكاية دلشس فهي من باب التهذيب إللي عندهم ·· وليست من باب الإعجاب بما تذوقوه .

ثم غمز لعبد الحميد :

– قدري اكتشف إنو القمار فيها ربح أسرع ·· ورغم كونه شيوعياً ·· والقمار مرض من أمراض الرأسمالية ·· إلا أنه لم يتردد في إضافة طاولة للقمار في الطابق الثاني من مطعمه ·· عرفت الحكومة ·· تاري المسألة بدها رخصة وضرائب ·· كبست الشرطة على المطعم ·· قدري طرح ثلاثة من الشرطة بإيد المكنسة ·· حبسوه ستة أشهر ·· وطارت رخصة المطعم .

صب قدري كأساً جديدة ·· كرع نصفها ·· وتجشأ :

– يا ما هالجمل كسر بطيخ .

جاءت زوجة قدري سلمت على الحاضرين وقبلت زوجة عبد الحميد :

– أستراليا نورت ·· تسلملي هالطلة الحلوة ·· إسمي فريال مرتو لها المنظوم .

أجلستها ثريا إلى جانبها ·· دار الحديث بينهما همساً ·· جلجلت الضحكات ·· تركهما قدري ينعمان بالرفقة الجديدة وانصرف يُنظِّر للحرب الكونية القادمة ·· حين تعب من التنظير باغت زوجته السؤال :

– وين وصلتي بالاستغابة ٠٠ أكيد ما سلمت واحدة في هالحفل من لسانك .

ردت زوجته بتحدي :

– ميت مرة قلت لك هادي مش استغابة ٠٠ هادي تبادل وجهات النظر .

– أكيد وصل الدور لأم نصوحي .

– تقبرني شو نسوانجي .

كانتا فعلاً قد وصلتا حيث أشار .

قالت ثريا :

– جوزك بشم على قفا إيدو .

تابعت فريال دون اكتراث :

– أم نصوحي زوجت إبنتها سوزي ثلاث مرات لثلاثة عرسان ٠٠ طلقتها من الأول لأنه قمارجي وضيعان هالبنت معاه ٠٠ طلقتها من الثاني لأنه سكرجي وضربها حتى أجهضت وهي في الشهر الرابع ٠٠ الأعجب من كل هذا أن العريس الثالث لما دخل عليها لقاها بختمة ربها .

ثم أكملت باللغة الفصيحة :

– يعني عذراء ٠٠ عمرك شفتي ؟!

قال قدري وهو يدخل مرحلة السكر الواضح :

– يمكن هالعريس مبروك ٠٠ وظهرتلو كرامة ٠٠ مش زي قليل هالبخت ٠٠ داني مالك ٠٠ إحوينتو اتجوز إيفيت وعمرها عشرين سنه وعلمو إنو أول بختها ٠٠ طلع سابع واحد .

قاطعته زوجته :

– مليح يعني طلع من العشرة الأوائل .

زمجر قدري :

– لك هيه شهادة البكالوريا ؟!

- ورغم ذلك ٠٠ داني مالك ٠٠

هزته زوجته ٠٠ فتنبه إلى أن صديقه داني مالك صار واقفاً أمام الطاولة ماداً يده لمصافحتهم .

- كنا في سيرتك ٠٠ على الطيب هه .

تأمله عبد الحميد كان فـارع الطول ٠٠ جسـمه رياضي ووجهه وجه طفل ٠٠ خصلات شعره الطويلة الناعمة المتدلية على جبينه ٠٠ والمسترسلة على جانبي وجهه تعطيه منظر صبي مدلل .

أكمل قدري دون أن يطرف له جفن :

- ورغم ذلك ٠٠ داني مالك ٠٠ يخدم القضية الفلسطينية بعزم وحزم .

جلس داني مالك إلى جوار علي زيدان ٠٠ متوجساً من لسان صديقه :

- هات من الأول .

- إيه ٠٠ كنا بنقول للأخ عبد الحميد إنو داني استقال من الحزب القومي السوري الاجتماعي في الشهر الماضي ٠٠ ورغم ذلك داني مالك ٠٠ إلى آخر الحديث .

كشر داني مالك عن أنيابه ليتخذ سمة المناضل الشرس ٠٠ وبدأ التنظير :

- أنا استقلت من عضوية الحزب ٠٠ وليس من أفكاره ٠٠ ومن منطلق قومي سوري ٠٠ التناقض بيننا وبين الصهيونية هو التناقض الوحيد المسموح به في الساحة الأسترالية ٠٠ أنطون سعادة علمنا

قاطعه علي زيدان :

- ما رح نختلف ٠٠ إنتو وحدو الهلال الخصيب ٠٠ وإحنا بنكمل المشوار وبنوحد الأمة العربية كلها

ضرب قدري المائدة بقبضة كفه :

- بلا قومية ٠٠ بلا بطيخ أمبسمل ٠٠ بمبدأي الأممية لح تنتصر قبل القومية ٠٠ والأممية لح تحرر فلسطين ٠٠ قبل ما يتوحد العالم العربي .

قطع عليهم زخم المناقشة صوت عريف الحفلة وهو يفحص الميكروفونات :

– ون ٠٠ تو ٠٠ تري ٠٠ تست .

قال قدري :

– ولك صورتنا ٠٠ طخ ها الكملة وخلصنا .

همس علي زيدان في أذن عبد الحميد وهو يشير لعريف الحفلة :

– هـــادا فـــوزي خميس ٠٠ عضو النادي العربي الفلسطيني ٠٠ خطيب مفوه ٠٠ وعريف دائم لمعظم الحفلات في ملبورن .

– أيها الحفل الكريم .

انطلق صوت فوزي خميـــس يرحب بالحاضرين ٠٠ وينـــوه بجلال المناسبة ٠٠ ألقى نبذة عن حياة وكفاح واستشهاد جنبلاط ٠٠ عندما أشار إلى علاقته بالزعيم الخالد جمال عبد الناصر ضجت القاعة بالتصفيق ثم قدم أمين عام الحزب التقدمي الأسترالي في ملبورن لإلقاء كلمة الحزب .

أفاض الخطيب في الحديث عن الشهيد ودوره في مقارعة الصهيونية والاستعمار ٠٠ ودعا إلى وحدة القوى التقدمية العربية في صراعها من أجل الحرية والكرامة والوحدة .

عاد فوزي خميس إلى الميكروفون ليقدم أفراد الفرقة الموسيقية التي ستحيي الحفل ٠٠ وعندما وصل إلى الفنانة ميمي زاهد ٠٠ أخذته الحماســـة (نقدم لكم رمز المرأة العربية ٠٠ حينما تنطلق من قيودها ٠٠ وتحلق في سماء الحرية ٠٠ مكرسة حياتها للعطاء والإبداع الفني ٠٠ الفنانة عازفة السيكسافون ميمي زاهد) .

أتم تقديم أعضاء الفرقة الموسيقية ٠٠ غـــادر الخشـــبة منتشياً بآيات بلاغته ٠٠ لم ينس أن يلتمس العفارم من الحاضرين .

– كيف هالتقديم ؟

احتج عمر الشحات :

- الله لا يعطيك عافية ٠٠ عملت ميمي زاهد ٠٠ خوله بنت الأزور .

- هادي عازفة موهوبة يا سيد عمر .

تدخل قدري وهو يكرع ما تبقى في كأسه :

- قصدك عازبة موهوبة ٠٠ ما كل معتَّر بهالجالية صمد خمسين دولار ٠٠ راحت معاه على البيت وعزفتلو عزف منفرد ٠٠ بشرفك كم مرة راحت عندك ٠٠ باينها بتراعي خاطرك عشان هيك توصيت فيها يا أيـــــ ٠٠٠

أدرك فوزي أن قدري قد سكر ٠٠ فولى من أمامه قبل أن يحظى بالمزيد .

قدمت فرقة الدبكة التابعة للحزب رقصاتها على أغاني فيروز ٠٠ تمايل عبد الحميد مع النغم الحنون :

- مايل ورق الصفصاف ٠٠ مايل ورق الصفصاف .

أتوا على ما في صحونهم من المازات ٠٠ بدأ تقديم العشاء .

قال النادل وهو يضع الطبق أمام عبد الحميد :

- مشويات من أطايب اللحوم الأسترالية يا سيدي .

أتى قـــدري على زجاجة الويسكي كلها ٠٠ ناولها للنادل ٠٠ أشـــار لزوجته ٠٠ أخرجت من حقيبتها الزجاجة الثانيـــة ٠٠ وضعتها أمامه ٠٠ صب كأساً من الويسكي لعبد الحميد ٠٠ صده عبد الحميد بيده :

- تبنا إلى الله .

- يا سيدي (بتوب بيجيها من يعز عليها) .

أصر عبد الحميد على الرفض ٠٠ جرع قدري الكأس ٠٠ ونحاه جانباً .

جاء رجل طويل نحيل متأنق الملبس ٠٠ تسبقه رائحة عطر فواح ٠٠ سلم على الحاضرين وانحنى على قدري ٠٠ أسر له بحديث طويل ٠٠ تخلص منه قدري بصعوبة بالغة ٠٠ مال على عبد الحميد :

– هادا أبو جيمي خيها لمنال عنبر ٠٠ قبل الأحداث ٠٠ أيام عز الليرة اللبنانية ٠٠ خسر في كازينو لبنان نصف مليون ليرة في ليلة واحدة .

حملق عبد الحميد مندهشاً لفداحة المبلغ ٠٠ فأكملت زوجة قدري :

– أبو جيمي كان تاجر مخدرات دولـــي ٠٠ ومال جابتو الأرياح ٠٠ تاخدو الزوابع ٠٠ ثم التفتت إلى زوجها :

– بدو يتدين[١] منك أكيد ؟

هز قدري رأسه بالإيجاب .

ضربت كفاً بكف :

– يا حرام اولادو بشتغلوا ليل نهار في التيك أوي[٢] عشان يسدوا الدين عنو ٠٠ وكلوا رايح في طاولات القمار ٠٠ وسبق الخيل ٠٠ وسبق الكلاب .

سحبت زوجة قدري عبد الحميد من يده إلى المرقص ليشاركا في حلقة الدبكة ٠٠ نظر إلى زوجته ٠٠ شجعته بابتسامة ودودة ٠٠ مدركة أن لا سبيل إلى الرفض ٠٠ هكذا دار مع الراقصين دورتين للمجاملة ثم عاد إلى المائدة .

قال لزوجته :

– خشيت أن يغويك أحدهم بالرقص معه .

– أنا مش خفيفة زيك .

ضحكا مغتبطين .

بدأ جمع التبرعات ٠٠ ألهب فوزي خميس أعطاف الحاضرين ببلاغته وأفرغ جيوبهم ٠٠ أخيراً حمل رجل صندوق ويسكي ووضعه على المسرح وتقدم إلى الميكروفون .

---

١. يتديـــن : يقترض المال .

٢. التيك أوي : مطعم الوجبات السريعة .

- فاعل خير ٠٠ تبرع بصندوق ويسكي ٠٠ رحمة ونور عن روح الشهيد كمال جنبلاط ٠٠ سيتم بيع الصندوق بالمزاد .

صاح قدري بجذل بالغ :

- هادي هيه إللي بقولوا عليها الحسنة المخفية .

رفع يده ليشارك في المزاد .

قالت زوجته :

- لن يخفض يده حتى يحظى بصندوق الويسكي أو يبيع أملاكنا .

أخيراً رسى المزاد على قدري بأربعمائة دولار ٠٠ استلم الصندوق ٠٠ فتحه وأخرج زجاجة تأملها وهتف :

- جوني ووكر ٠٠ مال على عبد الحميد يعني بالعربي (حنّا الماشي) .

شجعتهم زوجته وهي توزع قطع الثلج على أكواب الحاضرين :

- إيش ما إجا مع العافية مليح .

صب لهم ببطء ٠٠ كانت أجفانه قد تهدلت ٠٠ ولسانه قد بدأ يثقل بفعل السكر :

- صحة يا شباب .

رفع كأسه ٠٠ رفعوا كؤوسهم .

- في صحة شهدائنا .

شهقت زوجته :

- قطيعة ٠٠ شو ضل فيهم صحة ٠٠ ضيعانهم هالمساكين .

أنبها بنظرة قاسية ٠٠ ثم انفرجت أساريره :

- باين عليَّ سكرت ٠٠ خليكي صاحية يا مره عشان تسوقي السيارة .

تضاحكوا وهم يجمعون أشياءهم استعداداً لمغادرة المكان .

في طريق العودة قال عبد الحميد :

– داني مالك وعدني أن يزور مكتبي في السيتي .

أجاب علي زيدان :

– داني مالك كومة كبيرة من الخراء وجدناها أمامنا ٠٠ طردوه من الحزب بعد افتضاح علاقته بالمخابرات ٠٠ وأنا لا أستبعد أن تكون زيارته لمكتبك بتكليف منهم

علقت عفاف زوجة علي زيدان :

– هذا رجل منحوس ٠٠ زوجته إيفيت لم تكن يوماً فوق الشبهات ٠٠ خلف منها ولداً وبنتاً ٠٠ الولد سقط فريسة المخدرات والبنت هربت من البيت وهي في الخامسة عشره ٠٠ عثرت عليها الشرطة بعد عام كامل في بيت للدعارة ٠٠ أعيدت إلى أهلها بعد قضاء شهرين في أحد المصحات .

شهقت زوجة عبد الحميد وهي تضرب على صدرها :

– وعندو قلب يحضر حفلات بعد كل هالمصايب .

ردت زوجة علي :

– شايفتلك العرب في هالبلد جلدهم تمسح ٠٠ ما عاد يقطع فيهم شي .

(٥)

كان يطيب لعبد الحميد التنزه في مزرعته مشياً على قدميه ٠٠ كان يسمي المشي (رياضة الفقراء) في طفولته اضطر دائماً لقطع مسافات هائلة للوصـــول إلى مدرسته والعودة منها ٠٠ وعندما التحق بعمله أستاذاً في المدرسة الابتدائية في بلده ٠٠ لم يكن الراتب الزهيد يغطي أجرة المواصلات رغم ضـــآلتها ٠٠ فصـــار المشي جزءاً من حياته ٠٠ صحيح أنه افتقد كل ذلك ٠٠ اقتلعه الغزاة الصهاينة من وطنه وجرب حياة المنفى ٠٠ في إحدى دول الخليج ٠٠ هناك كانت حرارة الشمس في النهار وازدياد الرطوبة والحر في الليل ٠٠ يمنعانه من الاستمتاع بالمشي ٠٠ إلا أنه في إجازاته كان يحن لرياضته المفضلة ٠٠ وكثيراً ما قضى مشاويره كلها مشياً على القدمين .

حين علم أن صاحبه علي زيدان يشاركه نفس الهواية ٠٠ سأله :

– منذ متى بدأت رياضة المشي ؟

أجاب علي زيدان ساخراً :

– منذ عهد سقراط ٠٠ أنا أحد المشائين الذين أدمنوا المشي حوله في شوارع أثينا

من يومها وهما يتنزهان في مزرعة عبد الحميد على أقـــدامهما ٠٠ كلمـــا سنحت لهما الفرصة ٠٠ ذات يوم قررا الصعود إلى الجبل الذي تنتهي به حـــدود المزرعة من جهة الشرق ٠٠ مكان مازال بكراً ويندر أن تطأه قـــدم إنســـان ٠٠ حكومة الولاية أعلنته محمية طبيعية رغم أنه (أملاك خاصة) ويتبع (الأوسبري بارك) في سجل الملكية .

دار عبد الحميد وصاحبه في الطريق الصاعدة حـــول الجبـــل ٠٠ بغيـــة الوصـــول إلى القمـــة وإلقـــاء نظـــرة على الســـهل المجاور الذي يقع خلفها ٠٠

لابد أن المنظر من القمة خلاب ويستحق العناء ٠٠ بالإضافة إلى ما كانوا يكتشفونه في طريقهم ٠٠ أسراب النعام البري ٠٠ رفوف الببغاوات الملونة ٠٠ دببة (الكوالا) الكسولة التي تنام معظم الوقت على غصون أشجار الكينياء ٠٠ ولا تصحو إلا لتقضم اللحاء الطري الذي يغلف سيقان هذه الأشجار ٠٠ ثم تواصل نومها .

ما كاد عبد الحميد وصاحبه يتوغلان قليلاً حتى صادفتهما عائلة من الكناغر ٠٠ توقفا قليلاً لالتقاط الأنفاس ٠٠ أطلت ثلاثة رؤوس صغيرة من جيوب أمهاتها ٠٠ دارت يمنة ويسرة قبل أن تستقر عليهما ٠٠ وهي توجس خيفة ٠٠ أحد الثعالب المستوطنة في تجاويف الجبل كف عن مطاردته لأرنب بري ٠٠ لحظة وصولهما ٠٠ علق عبد الحميد ساخراً :

– نجا الأرنب بجلده .

كاد الصديقان أن يصلا إلى القمة ٠٠ حين دوى صوت الرصاص فجأة ٠٠ انبطحا على الأرض بحركة تلقائية ٠٠ أحصيا صوت رصاصة ٠٠ واثنتين ٠٠ وثلاثا .

قال عبد الحميد :

– هذه بندقية رش ٠٠ مما يستعمل في الصيد .

رد علي زيدان :

– نعم ٠٠ ولكنها تصلح للقتل أيضاً ٠٠ ربما كان مطلق الرصاص يستهدفك ٠٠ الأحسن أن نعود أدراجنا .

– ألا يجدر بنا مطاردة الفاعل ؟

– لسنا مسلحين مثله ٠٠ ومطاردته بدون سلاح ٠٠ هي حماقة لا أنصحك بها .

– هل نخبر الشرطة ؟

- أخشى أن تكون الشرطة أو بعض رجالها ضالعين في مؤامرة لتطفيشك من الجبل ٠٠ ومن المزرعة كلها ٠٠ ألم أقل لك أن الصهاينة وضعوك في رأسهم .

- أنت تبالغ كثيراً ٠٠ ولو كانوا يريدونني لما كمنوا لي في مكان كهذا قد أصل إليه وقد لا أصل .

انهم يستطيعون الوصول إليَّ في مكتبي أو عقر داري إذا أرادوا .

- نعم ولكن ذلك سيثير الكثير من الشكوك ٠٠ أما هنا فالمسألة ٠٠ رصاصة صياد طائش ٠٠ وتسجل الحادثة ضد مجهول .

نهضا عن الأرض ٠٠ وعادا على أعقابهما .

بلغ عبد الحميد الشرطة ٠٠ لم يلقوا بالاً إلى بلاغه ٠٠ قال له ضابط الشرطة وهو يتثاءب :

- هل أصيب أحد ؟

- كلا .

- هل تعرف اسم مطلق النار وعنوانه ؟

- كلا .

- هل تشك في أحد .

- كلا .

أغلق الضابط المحضر وهو يبرطم :

- في الريف تحدث هذه المسائل كل ساعة ٠٠ معظم الفاعلين أولاد صغار ٠٠ يشغلون وقتهم بمطاردة بطة أو أرنب ٠٠ على كل حال إذا تكرر ذلك أخبرنا .

عاد عبد الحميد وقد خاب أمله ٠٠ قال علي زيدان :

- لو كنت من الإنجلوساكسون ٠٠ لهرعت الشرطة وربما الجيش أيضاً ٠٠ لتمشيط المنطقة واعتقال الفاعل .

رد عبد الحميد ساخراً :

– أنت دائماً تسئ الظن بأشقائنا الأسترال .

تابع علي :

– ما الذي تنوي عمله ؟

– في الويك إند سوف نحمل بنادق الصيد أنا وأولادي ٠٠ ونصطحب الكلاب في جولة بالجبل لتقصي الحقائق .

– هل تسمحون لنا بالمشاركة .

ثم أردف :

– لا تخف من إعالتنا ٠٠ لدينا بنادقنا ونستطيع اصطياد أرانب تكفي لإطعام قبيلة .

– اتفقنا .

لم يتسع وقت عبد الحميد لإنفاذ وعده بتعقب مطلق الرصاص ٠٠ كاد أن ينسى الموضوع لولا تكرر سماعه لصوت الرصاص ٠٠ خاصة وقت هبوب الهواء من جهة الجبل ٠٠ الأمر الذي كان ينغص صفوه ٠٠ ويذكره بأن عليه أن يحمي ذماره ٠٠ كما يليق بعربي أصيل .

(٦)

توطدت العلاقة بين آل السلطان ٠٠ وآل زيدان ٠٠ المستوى الثقافي المتشابه ٠٠ وتقارب السن بين الأولاد أمد العلاقة بزخم إضافي ٠٠ توالت الزيارات والاتصالات والنزهات المشتركة ٠٠ ولم يعد أي من العائلتين يجد حرجاً في زيارة الأولاد بعضهم بعضاً دون موعد سابق .

في واحد من هذه الزيارات الحميمة ٠٠ إنقسم الزوار إلى حلقتين ٠٠ الأولاد بدأوا حديثاً حميماً في ركن الصالة ٠٠ وانتهوا إلى غرفة ناجي بحجة لعب الأتاري ٠٠ البنات استضافتهن مي في غرفتها لتريهن مجموعة الصور التي تسجل مراحل حياتها ٠٠ حيث أنها من هواة التصوير .

قال شاهين ابن الثانية والعشرين لصديقه الجديد ناجي ابن التاسعة عشرة :

– مشكلة الآباء في هذه الديار أنهم ديناصورات منقرضة .

اتسعت عينا ناجي من الدهشة ٠٠ إلى أن فسر له صاحبه :

– أعني من عصور ما قبل الثورة .

فتح ناجي فمه على سعته ٠٠ وقد احمر وجهه فهذه أول مره يسمع فيها قدحاً بالآباء ٠٠ الذين هم عنده موضع قداسة ٠٠ رد ببلاهة :

– الثورة الفلسطينية .

– الثورة الجنسية يا أحمق .

لفه الدوار ٠٠ تذكر سلوك البنات معه في المدرسة ٠٠ احتضانهم له وتقبيلهم شفتيه بمناسبة وبدون مناسبة ٠٠ تذكر مشاهد العناق الحار والطويل بين الفتيات والفتيان ٠٠ في الحدائق والشوارع والباصات وعربات المترو ٠٠ حتى في الصفوف حين يتأخر الأستاذ عن الحصة .

تابع صديقه :

- أتعــرف ماذا يســمون هــذا في الجامعة ؟ .. (أشار إلى ذكره ..) يسمونه (الحزام الناقل) .. لكثرة البنات اللواتي يطلعن عليه وينزلن عنه .. لم أعد أتشدد في مسألة الجمال .. شو ما إجا مع العافية امليح .

ران الصمت برهة :

- هكذا إذن .. يسمونه الحزام الناقل ؟

تابع شاهين بزهو وتفاخر :

- أنا لا أوافقهم على هذه التسمية .. أنا أسميه حجر الفلاسفة .. الذي يحول المعادن الخسيسة إلى ذهب .. هؤلاء الحمقاوات الصغيــرات .. القليــلات الجمال .. وحتى اللواتي حرمن منه تماماً .. يصبحن في الفراش شيئاً آخر .. كلما استسلمن أكثر لفعل الحب .. كلما تأكدت المعجزة .. وجوههن تتدفق جمالاً وحيوية ونضرة .. موجات من الألق تسطع في عيونهن حتى الشهقة الأخيرة .. الطبيعة يا أحمق تتقن نصب فخاخها .

دخل فادي يحمل أشرطة الأتاري .. فتوقفا عن الحديث .. أدرك فادي أنهم يتحدثون في الممنوع فقال لهم :

- يا ويلكو بتحكو على البنات الأستراليات .

ثم تابع بسخرية :

- المحصنات الغافلات .. في مدرستنا ثلاث بنات حبالى إحداهن دون السادسة عشرة وهي في الشهر الخامس .. إدارة المدرسة قررت .

قاطعه ناجي :

- طردهن من المدرسة .

قلبك أبيض إدارة المدرسة قررت تعليق علب (الكوندام)[١] في دورات المياه ٠٠ وهم يعطوننا الآن دروساً في كيفية تجنب الحمل ٠٠ ها ها ها ٠٠ فيكم تكملوا كلامكم وضميركم مرتاح .

حملق فيه شقيقه الأكبر مشدوهاً ٠٠ فهو يصغره بعامين ٠٠ ومع ذلك لم يسبق له أن رفع الكلفة في الحديث معه كما يفعل الآن .

قال شاهين :

- أكيد يا فادي البنات قرطوك قرط ٠٠ طويل ٠٠ أسمر ٠٠ عينيك سود ٠٠ شعرك مسبسب ٠٠ بتعزف جيتار ٠٠ يعني رومانسية مركزة (الأسنس) .

صرخ ناجي في شقيقه :

- هادي نتيجة التربية إللي رباها لك أبوك ؟

رد فادي وهو يصطنع البراءة :

- الوالد قال (نعطيهم أحسن ما عندنا ونأخذ أحسن ما عندهم) ٠٠ وأنا ماشي مع البنات حسب وصية الوالد يا مستر مونك [٢] .

أدرك ناجي الآن لماذا يسمونه مونك في المدرسة ٠٠ سكت ولكن صدره ظل يعلو ويهبط من شدة الغيظ .

قهقه شاهين جذلاً ٠٠ وسأل فادي :

- وأنت ماذا يسمونك ؟

- (فـــا) ليس نسبة إلى فادي ٠٠ ولكن كما علمت من إحدى البنات أنها نسبة إلى فالنتين [٣] .

---

١. الكونـــدام : الواقي من الحمل .

٢. مونـــــك : راهب .

٣. فالنتيـــن : عيد الحب .

أحس ناجي بالغثيان ٠٠ قام إلى الشرفة يتنفس هواء البحر ٠٠ تبعه شاهين وقال في لهجة مصالحة :

- لا تغضب من فادي .

رد عليه ناجي بعصبية :

- لم أغضب منه فقط ٠٠ أنت أيضاً .

- كل هذا لأننا تباسطنا معك في الحديث ٠٠ وانطلقنا على السجية ٠٠ في المرة القادمة سنحسب حساب كل كلمة حتى لا نؤذي مشاعرك .

استجمع ناجي شجاعته وواجه محدثه بعزم :

- هل ترضى لأختك ما ترضاه لصديقاتك في المدرسة ؟

هب شاهين وأمسك ناجي من رقبته :

- اخرس ٠٠ لو ذكرت أختي على لسانك مرة ثانية لقتلتك .

دخلت البنات إلى الشرفة فتراجع شاهين ٠٠ أصلح ناجي قميصه ٠٠ وذهب إلى الصالة تبعوه ٠٠ وجلسوا صامتين ٠٠ فتح ناجي التلفاز ٠٠ وتشاغل بمتابعة البرنامج حتى عاد الكبار .

أما الفتيات فقد استمتعن بالوقت دون ازعاج ٠٠ كانت رُلى في الرابعة والعشرين ٠٠ دمثة حنونة ٠٠ استوعبت البنات وجمعتهن حولها في ألفة ٠٠ ودار الحديث بينهن ودوداً مرحاً .

لينا مارست موهبتها في التقليد ٠٠ قلدت المدرسين والمدرسات ٠٠ وقلدت أمها وحتى عبد الحميد لم يسلم من شرها ٠٠ مي استعرضت ألبوم صورها وشرحت للضيفة مناسبة كل صورة ٠٠ والبلد الذي أخذت فيه .

قالت رُلى :

- لقد زرتم بلاداً كثيرة قبل هجرتكم إلى أستراليا ٠٠ لذلك فإن النقلة لم تكن صعبة عليكم تأقلمتم بسرعة ٠٠ أما أنا فمن ثانوية الحضرة الزينبية للبنات في القامشلي

إلى ثانوية فرانكستون ٠٠ تلك تجربة أليمة ٠٠ ثم أضافت بلهجتها السورية :

- تتذكر وما تنعاد .

رانت فترة صمت قبل أن تسترسل رُلى في خواطرها :

- في السنة الأولى كان الأولاد يبذلون جهدهم في التودد إلي ولكنني نجحت في صدهم ٠٠ وكما يحتمي القنفذ خلف أشواكه حاولت الاحتماء بالموروث من عاداتنا وتقاليدنا ٠٠ العيب ٠٠ والحرام والممنوع ٠٠ وقد أفضى بي ذلك إلى نوع من العزلة ٠٠ حتى عند بنات الفصل ٠٠ فلكل واحدة منهن رفيقها من الأولاد ٠٠ تلازمه كظله ولا مكان بينهما لثالث ٠٠ أما الدميمات اللواتي أعجزهن الحصول على رفيق فقد كن على الغالب معقدات ٠٠ أو شاذات ولا يصلحن لصداقة بريئة .

روعت عزلتي الباحثة الاجتماعية والناظر وجزءاً من هيئة التدريس ٠٠ فاستدعوا والدي لمعالجة الموقف ٠٠ مستأنسين لكونه يعمل أميناً لمكتبة البلدة .

جلس والدي هادئاً يستمع للناظر والباحثة الاجتماعية وهن يشرحن مخاوفهن من انطوائي وعزلتي ٠٠ وعزوفي عن اختيار (رفيق) مثل كل بنات الصف ٠٠ كنت أرى على وجه والدي الزلزال الوشيك فشعرت بالرعب ٠٠ جمعت أغراضي وغادرت الغرفة إلى دورة المياه ٠٠ أما الذي حدث بعد ذلك ٠٠ فقد عرفته من إحدى مدرساتي ٠٠ قلب والدي الطاولة على رؤوسهم .

حملقت مي كمن أخذتها المفاجأة .

تابعت رُلى :

- ليس مجازاً ٠٠ ولكن حقيقة ٠٠ أطاح بالطاولة ٠٠ وصرخ بأعلى صوته :

- نحن لا ننتمي إلى مجتمعكم الفاسد ٠٠ ولا إلى ثقافتكم القذرة ٠٠ إن ابنتي هنا لتتعلم العلم فقط ٠٠ وليس مجموعة الرذائل التي تريدون فرضها علينا ٠٠ إذا تجرأ واحد في هذه المدرسة على تحريضها لتسلك سلوكاً يتنافى مع تقاليدنا وعاداتنا ٠٠

فسأهدم المدرسة على رؤوسكم ٠٠ قالها أبي وانطلق كالعاصفة إلى سيارته دون أن يتلفت ٠٠ بعدها لم يتجرأ أحد على الاقتراب مني أو الحديث معي حتى اجتزت الثانوية ٠٠ دخلت الجامعة وسوف أتخرج هذه السنة ٠٠ الوظيفة مضمونة ٠٠ والأهم من الوظيفة الحرية ٠٠ لن أسمح لأبي أن يتحكم بي بعد ذلك ٠٠ إنه يخطط ليزوجني بعربي مسلم ٠٠ يمارس خارج البيت كل سفالات العالم ٠٠ وينتصب داخل بيته قديساً يصرخ في وجه زوجته (الرجال قوامون على النساء ٠٠ الرجال قوامون على النساء) .

قالت مي مذعورة :

– هل تعتقدين فعلاً أن كل الرجال العرب يفعلون ذلك ٠٠ إن الجالية العربية حوالي نصف مليون أليس فيهم واحد يصلح زوجاً لك .

تنهدت رُلى وقالت :

– أتدرين حين كنت في السادسة عشرة قرر والدي أن يسجلني في دورة اللغة العربية بمدرسة صديقه العزيز عمر الشحات ٠٠ وفعلاً التحقت بالدورة ٠٠ كان فيها عدد من الشباب العرب .

– هل تودوا لك ؟

– كلا ٠٠ انشغلوا برفيقاتهم الأستراليات ٠٠ الذي تودد إلى هو ناظر المدرسة ٠٠ تعقبني هذا الإمام الفاضل إلى غرفة المكتبة وأغلق الباب ٠٠ ضمني إلى صدره ضمة كادت تزهق روحي ٠٠ حاول .

دخلت أختها الصغرى فقطعت الحديث .

سحبت رُلى من حقيبتها شريط كاسيت وضعته في المسجل وأدارته ٠٠ بدأت الموسيقى ٠٠ وقفت في منتصف الغرفة وقالت :

– سأرقص .

رقصت مثل طير مذبوح ٠٠ أخيراً شدت الأخريات لمشاركتها الرقص .
انضمت إليها مي ولينا ٠٠ رقصوا ٠٠ واستبدلوا شريطاً بآخر ٠٠ حتى نهاية السهرة .

(٧)

أفرط عبد الحميد السلطان في استكمال أناقته ٠٠ هذه أول مرة يدعى فيها للاجتماع مع وزير أسترالي ٠٠ صحيح أن الدعـوة لم تكـن له شخصياً ٠٠ الدعوة شملت لفيفاً من رجال الأعمال ٠٠ ولم تكن لحفلة ساهرة مما يستدعي هذه الأناقة ٠٠ الدعوة لتناول الإفطار ٠٠ والوزير هو وزير الشئون الاجتماعية .

لم يشر عبد الحميد وهو يعمم الخبر على معارفه ٠٠ إلى أن الإفطار مدفوع القيمة سلفاً (يعني أن المشاركين فيه قد دفع كل واحد منهم فاتورة إفطاره للفندق الذي سيجتمعون في إحدى قاعاته) أحس عبد الحميد أن ذلك ينقص من وجاهة الدعوة .

اصطحب عبد الحميد ابنته مي لتقوم بالترجمة إذا صعب عليه فهم عبارة ما ٠٠ حينما وصل فوجئ بأن معظم الحاضرين ارتدوا ملابس بسيطة ٠٠ وحتى الوزير ارتدى بنطال جينز وررنج بـوت (تي شيرت) نصف كم .

خلع عبد الحميد جاكيته بدلته ٠٠علقها على ظهـر مقعـده وفك رباط عنقه ٠٠ بدى أكثر انسجاماً مع الحاضرين ٠٠ تصدر الوزير المائدة محاطاً بمساعده ومديرة مكتبه ٠٠ ألقى تحية قصيرة شكرهم على تلبية دعوته متمنياً لهم إفطاراً شهياً ٠٠ دخل في موضوع الدعوة مباشرة دون مقدمات :

– نحن هنا في أستراليا نعاني ما عانته المجتمعات الصناعية في أوروبا وأمريكا وأجزاء أخرى من العالم (أعني تفكك الأسرة وما يؤدي إليه ذلك من مشاكل) لدي إحصائيات مخيفة تكشف ما يتعرض له أطفالنا من مخاطر .

إن ثلث الأطفال القاصرين في أستراليا (١٠ – ١٦ سنة) يتم الاعتداء عليهم جنسياً ٠٠ غالباً بواسطة الأهل (زوج أو صديق الأم وزوجة أب أو صديقة الأب)

ساعد على تفشي هذه الظاهرة تفاقم تعاطي الكحول والمخدرات في المجتمع ..
لدينا الآن في ملبـــورن وحدها ســـبعة آلاف فتى وفتاة بـــدون عائل أعمارهن بين (١٢ – ١٧ سنة) .. إن اندثار الأسرة كمؤسسة محترمة هي أهم أســـباب هذه الكارثة .. لابـــد أنكم اطلعتم على الإحصائيات عن ارتفاع نسبة الطلاق بين المتزوجين .. لا يخفى عليكم أن هؤلاء الفتيات عرضة للانحراف والمرض والضغوط النفسية وبعضهن حاولن الانتحار أكثر من مرة .. المشكلة التي تواجهنا هي أن هؤلاء الفتيات لا يقبلن المكوث في دور الرعاية الاجتماعية التي توفرها الدولة .. يفضلن المبيت على الأرصفة .. تحت الجسور .. وفي الحدائق العامة وهي في مجملها بيئة غير صحية .. تعطيهم المجال للمزيد من الانحراف والتدهور .. هناك دول صناعية عالجت هذه المشكلة قبلنا .. ألمانيا مثلاً أعادت زرع هؤلاء الفتيات في عائلات سوية كبر أبناؤها وتركوا فراغاً في بيوت أهلهم اليابان وزعتهم على الشركات الصناعية الكبرى التي تعهدت بتدريبهم وتأهيلهم للعمل ضمن برامجها المخصصة لحالات من هذا النوع .

في إسرائيل ..

بلع عبد الحميد ريقه وقال لابنته حتى هنا وفي إفطار دفعنا ثمنه سلفاً .. يقتحم الصهاينة علينا المكان .. يا لفرط إنسانيتهم .. اسمعي كيف يضعون الحلول الرائدة لمشاكل العالم .

تابع الوزير كلامه .. وهو يرتشف قهوة الصباح .

في إسرائيل تم توزيعهم على الكيبوتس .. هل تعرفون ما هو الكيبوتس ؟

وقف عبد الحميد :

– ســـيدي الوزيـــر أنا فلسطيني قادم من هناك تواً وعندي الخبر اليقين .. الكيبوتـــس أيها الســـادة هـــو أرض فلسطينية .. صادرتها حكومـــة إسرائيل ..

من ملاكها الأصليين العرب الذين كانوا يعملون عليها هم وأجدادهم منذ آلاف السنين ٠٠ منحتها بعد طرد سكانها ٠٠ العرب إلى تعاونيات إسرائيلية تحت شعار استصلاح الأراضي البور .

سرت الهمهمة بين الحاضرين وتوتر الموقف ٠٠ اضطرب فنجان القهوة في يد الوزير ٠٠ قالت مي في سرها :

– يبدو أن الكلام قد فاجأه ٠٠ وجعله يغص بقهوته .

تدارك الوزير الأمر ٠٠ نحن لا نتكلم عن الجانب السياسي ٠٠ المتعلق بنشأة الكيبوتس ٠٠ ما يهمنا هـو الوظيفـة الاجتماعية التي يمثلها ٠٠ وعلى كل حال ٠٠ الأمر متروك لكل واحد منكم على حده ٠٠ لاختيار موقفه من الطروحات التي قدمناها .

جلس عبد الحميد ٠٠ ران الصمت برهة ٠٠ تابع الوزير كلامه :

– أيها السادة إذا كان لدى أحدكم أي اقتراح أو فكرة صائبة لمعالجة ما نحن فيه أرجو أن يقولها الآن ٠٠ أو يكتبها كمذكرة ترفع للوزارة في أي وقت يشاء ٠٠ إن مساهمتكم ستكون موضع اهتمامنا وتقديرنا .

انفض الاجتماع وتفرقوا عائدين إلى مكاتبهم وأعمالهم .

في المصعد فوجئ عبد الحميد بأن الوزير ينزل معه ٠٠ قال له الوزير :

– إذن أنت فلسطيني ؟

– ومهاجر جديد يا سيدي الوزير .

– تستطيع زيارتي في مكتبي أي وقت شاء ٠٠ هذه دعوة مفتوحة ٠٠ هل الآنسة ابنتك ؟

– نعم .

– أرجو أن لا نكون قد خيبنا أملها في وطنها الجديد ٠٠ بما كشفنا من حقائق ٠٠ فتندم على الهجرة إلى استراليا .

قالت مي :

– كلا ٠٠ على الإطلاق ٠٠ لا أظنني سأندم ٠٠ لقد جئنا إلى هنا بعد أن سحب الصهاينة الأرض كلها من تحت أقدامنا ٠٠ لم يعد لنا أي خيار آخر .

– وأنت مستر أبدول .

– كنت أتمنى مساعدتك يا سيدي الوزير في المشكلة التي طرحتها اليوم ٠٠ ولكننا نحن العرب لا نعاني من هذه المشكلة على الإطلاق ٠٠ إن العائلة في بلادنا ما زالت مؤسسة محترمة ٠٠ الآباء والأمهات على استعداد للتضحية بحياتهم وليس بسعادتهم فقط من أجل أبنائهم .

ابتسم الوزير :

– صحيح أنكم لا تعانون من المشكلة ٠٠ ولكن هذا لا يعفيك من الإحساس بخطرها على مجتمعنا .

ابتسم عبد الحميد وهو يرى الوزير يوليه كل هذه الأهمية :

– بالطبع يا سيدي الوزير .

لاحظ الوزير أن مي ترتدي ثياباً أنيقة ٠٠ وتتابع الحديث بشغف ٠٠ فأراد أن يمازحها :

– لعلك اكتشـــفت خـــلال اجتماعنا اليوم لماذا يسمون بلادنا (داون أندر) *Down Under* .

ردت بعفوية :

– ظننت أن التسمية بسبب الموقع الجغرافي وليس بسبب الأخلاق .

ضحك الوزير وهو يربت على كتفها :

– لا عليك ٠٠ كنت أمزح فقط .

انفتح باب المصعد ٠٠ ودعهما الوزير ٠٠ ومضى إلى سيارته ٠٠ ظل عبد الحميد يفكر بما سمعه أخيراً قال لابنته :

- هكذا إن ٠٠ داون أندر .

تمنت مي من كل قلبها لو أن صديقتها رُلى كانت حاضرة ٠٠ ربما قلل ذلك من انبهارها بالحضارة الغربية ٠٠ وأعاد لها قليلاً من المنطق ٠٠ فلا تدين كل ما هو عربي .

❋❋❋

في مكتبه وجد عبد الحميد الدكتور علي زيدان في انتظاره :

- جئت للاطمئنان عليك ٠٠ مي قالت لرُلى أن سيارة تتبع سيارتكم ٠٠ وأنك مراقب ٠٠ ومزرعتك تحظى بزيارات عملاء المخابرات الأسترالية ٠٠ بأسباب ملفقة .

رد عبد الحميد :

- وشوا بي ٠٠ زعموا للحكومة أنني أجمع السلاح في مزرعتي ٠٠ وأدرب الإرهابيين على استعماله .

- علمت أنك سهلت عليهم المراقبة ٠٠ قبلت تأجير داني مالك حقلاً من حقول المزرعة ٠٠ وضع فيه حصان ابنة أخيه ٠٠ ومنحتها وظيفة في مكتبك ٠٠ .

- أولاً هذا ليس حصان طروادة ٠٠ إنه حصان حقيقي ٠٠ وهو حصان ظريف ولن يثقل علينا فمساحة المزرعة شاسعة كما تعلم ٠٠ أما عن ملك فهي موظفة كفء بغض النظر عن هواجسك تجاهها .

شرد عبد الحميد بفكره إلى اليوم الذي رأى فيه ملك لأول مرة ٠٠ كان ذلك يوم استعراض المومبا الاحتفال المميز لأهالي ملبورن ٠٠ لقد جاءوا يومها من كل مدن ولاية فكتوريا للمشاركة في الاستعراض أو التفرج عليه ٠٠ سيارات الزهور بأشكالها الفنية البهيجة ٠٠ فرق الرقص والموسيقى ٠٠ فنانو الجاليات ٠٠ طلبة المعاهد والمدارس في مختلف أنحاء الولاية ٠٠ يتقدم الموكب عربة تجرها الخيل الفارهه يجلس فيها ملك المومبا ٠٠ وهو شخصية اعتبارية تنتخب في كل عام

لترأس الاحتفال اعترافاً بإسهامه في خدمة مجتمعه ..المهرجون بملابسهم التنكرية وسيقانهم الخشبية العالية ودراجاتهم الغريبة الصنع .. كانوا يضيفون إلى الاحتفال لمسة تشيع في الأطفال السعادة و الحبور .

كان الفلسطينيون يشاركون في الاستعراض بعربة مكشوفة مزينة بأعلام فلسطين وفيها أطفال بملابس تقليدية .. يدبكون ويغنون .. مما شجع عبد الحميد على مشاهدة الاستعراض .

احتلت عائلة السلطان مكاناً مشرفاً على الاستعراض .. وأعدوا العدة لقضاء سهرة جميلة في الحدائق المطلة على نهار يارا حيث نصبت الملاهي والأراجيح وبسطات الطعام والهدايا.. ومنصات الألعاب النارية .

أوشك الاستعراض على الانتهاء .. بدأ الناس في جمع كراسيهم ومظلاتهم استعداداً للمغادرة .. فوجئ عبد الحميد بوصول داني مالك .. كانت معه فتاة صارخة الجمال .. قدر عبد الحميد أنها في العشرين من عمرها .. معتدلة الطول تلبس تنورة قصيرة .. وقميصاً ضيقاً .. يطبق على صدرها النافر بصعوبة بالغة ثم يلتف حول خصرها النحيل .. مبرزاً امتلاء ردفيها .. تأمل عبد الحميد عينيها السوداوين الواسعتين .. شعرها الفاحم المتهدل في جديلتين على جانبي وجهها وقال في سره .. يا إلهي كم يشف هذا الوجه .. عن براءة مصطنعة .. تنفيها نظرتها التي تختلس من المرء روحه .

عانقه داني مالك وصاح بجذل :

– يوماً ما سيعرف الأسترال قيمتك يا سلطان ويعملوك ملك المومبا .

ثم قدم له الفتاة :

– هايدي ملك بنت خيي إلياس إللي في سيدني .. بيها طردها .. شنها باتت ليله بره البيت .

نكس عبد الحميد رأسه .. وقال في تأثر بالغ :

– بيّها حشر كثير ٠٠ هادي ملك وباين عليها ملك .

– مو هيك ؟! بدنا إياك تشغلها معك في المكتب ٠٠ البنت عندها كورس سكرتارية ورح تفيدك كثير

قال السلطان وهو ما زال مأخوذاً بسحرها الطاغي :

– دعها تحضر إلى المكتب غداً .

ثم أكمل في سره :

– إذا كانت من طرف المخابرات ٠٠ فإن ذوقهم في اختيار الفتيات ٠٠ يفوق ذوق مخرج أفلام جيمس بوند .

تسلمت الفتاة عملها في مكتب السلطان ٠٠ وبذلت جهداً كبيراً في القيام بواجباتها ٠٠ لم تركن إلى صداقة رئيسها للعائلة ٠٠ ولم تعتمد على جمالها الصاعق ٠٠ باختصار كانت موظفة مثالية .

هزه علي زيدان ليوقظه من شروده :

– ماذا قلت يا سلطان ؟! إنهم يحاصرونك الآن في المكتب ٠٠ وفي المزرعة ٠٠ وربما وضعوا أجهزة للتصنت في البيت أيضاً .

رد السلطان بصبر نافذ :

– اسمع يا علي ٠٠ أنا لا أخفي في المزرعة شيئاً ٠٠ ولا أستعملها قاعدة لتدريب الإرهابيين كما ادعى الصهاينة ٠٠ كما أنني لست إرهابيا ٠٠ ولست عضواً في أي تنظيم ٠٠ وليس هناك وسيلة لطمأنة الحكومة ٠٠ أحسن مما فعلت ٠٠ سيأتي يوم تكتشف فيه استراليا كل ألاعيبهم ٠٠ وتكف عن تصديقهم و تأييدها الأعمى لهم .

– إنني أحسدك على برود أعصابك ٠٠ لم أكن أعرف أنك ستسايرهم إلى هذا الحد

– كأنك لست دكتوراً في الفلسفة .

– وما دخل الفلسفة في الموضوع ؟!

– الفلسفة توصل إلى الحكمة يا دكتور .

سكت قليلاً ثم تابع :

– سئل معاوية بن أبي سفيان عن الحكمة فأجاب ٠٠ (الحكمة ثلثها فطنة ٠٠ وثلثاها تغافل) .

– هل هذا التغافل هو ما يدفعك إلى تأجيل حملتنا لتحرير قمة الجبل ٠٠ من مطلق الرصاص ٠٠ علمت أنكم ما زلتم تسمعون صوت الرصاص في بعض الأيام .

– هذه لا يشملها التغافل ٠٠ وأعدك بأن نعلن التعبئة العامة لاجتياح القمة قريباً جداً أغرقا في الضحك كما يليق بصديقين حميمين .

(٨)

وضعت مي السلطان فنجان الكافي لاتيه على جانب المائدة ٠٠ لاحظت أن مقصف الكلية هادئ ٠٠ نظرت إلى ساعتها بقي نصف ساعة على موعد الغذاء بإمكانها الاستفادة من الوقت ٠٠ فتحت ملفاً وضعته أمامها ٠٠ استغرقت في مراجعة موضوع من المفترض أن تسلمه للدكتورة المشرفة على رسالتها بعد محاضرة المســـاء ٠٠ فوجئت بشاهين يأخذ المقعد المواجه لها ويشبك ذراعيه فوق المائدة التي بينهما .

تأملها شاهين ٠٠ سمراء ٠٠ نحيلة ٠٠ واسعة العينين في خديها شحوب يزيد جمالها وتألقها

– هل أستطيع تقديم مساعدة من أي نوع ؟ ٠٠ نحن التلاميذ القدامى في الكلية يفترض فينا وضع أنفسنا في خدمة التلاميذ الجدد ٠٠ بغض النظر عن مدى معرفتنا بهم أو عواطفنا تجاههم .

رفعت مي عينيها عن كراريسها وشملته بنظرة لا مبالية ٠٠ سحبت فنجان قهوتها وارتشفت منه بهدوء .

لم يضطرب ولم يشعر بالحرج لتجاهلها ولكنه واصل المحاولة بعناد :

– تواصلين التهرب مني ٠٠ تتحاشينني كما يتحاشى بعض الناس الوباء .

قالت دون أن تعيره التفاتاً :

– خير معرفة المرء معرفته لنفسه .

– هكـــذا إذن ٠٠ وصفت نفســـي بالوصف الذي تقرينـــه ٠٠ الوباء ٠٠ وأنت طبعاً فتـــاة محصنـــة ٠٠ تم تطعيمهـــا جيـــداً ضـــد الأوبئة بكل أنواع المضادات الحيويـــة ٠٠ مثـــل التقـــوى ٠٠ وحســـن الخلق ٠٠ والتربيـــة الحســـنه ٠٠

إلى آخر ما حوته علبة العطار الشرقي من بضاعة ٠٠ يضحكون بها على عقول الفتيات من أمثالك ٠٠ المصيبة أنك جميلة ٠٠ جميلة جداً بحيث لا يمكن لفتى مثلي نكـــران ذلك أو تجاهله ٠٠ لو كنت أقل جمالاً لتركتك على عماك ٠٠ ولكنت أقل شعوراً بتأنيب الضمير .

استمرت مي في ارتشاف قهوتها دون أن تعلق ٠٠ حين انتهت من فنجانها نحته جانباً ٠٠ جمعت أوراقها ٠٠ قالت وهي تهم بالمغادرة :

– يبدو أنك اليوم مفلس تماماً ٠٠ لم تعلق أي فتاة بصنارتك منذ الصباح الباكر ٠٠ وهكذا قررت أن تصطاد من المقلى ٠٠ قلت في سرك (مش خسارة في بنت عبد الحميد ٠٠ هيه أبدى من غيرها وفي النهاية كلهم بنات) .

تبخترت مي من أمامه ٠٠ دق بقبضته على المائدة وهو يحمحم مثل جواد تم شكمه :

– بنت عبد الحميد السلطان ٠٠ طز ٠٠ أي هيه بنت الله ٠٠ الحق عليَّ أنا اللي رخصت حالي .

دخل الكافتيريا سرب من الطالبات الحسناوات ٠٠ هرع إليهن شاهين وهو يعلق على شفتيه ابتسامة لزجه ٠٠ سألته إحداهن إن كان قد رأى ناجي ٠٠ علق ساخراً :

– رأيت أخته منذ لحظات ٠٠ ولكن لماذا تريدينه ؟

– سمعت أن القناة التاسعة في التلفزيون ستذيع فيلماً عن حياة جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل السابقة ٠٠ أعرف أنه يهتم كثيراً بما تعرضه وسائل الإعلام الأسترالية حول قضية بلاده .

قـــال شـــاهين في ســـره ٠٠ عظيم وجدت سبباً للاتصال بناجي في التليفـــون ٠٠ إذا تصـــادف وردت عليَّ مـــي أزيـــدها مـــن الشـــعر بيتـــاً ٠٠ مثلـــي لا يعـــرف اليـــأس طريقـــاً إلى قلبـــه ٠٠ الأحســـن أن أمر عليهم في المزرعة ٠٠

المسألة لا تحتمل التأجيل ما دامت تتعلق بفلسطين ٠٠ أنا دايماً قصدي شريف .

ضحك في سره ٠٠ وضع يده على كتف صديقة ناجي ٠٠ وقادها إلى ماكينة القهوة :

- هل أُقدم لك فنجاناً من القهوة ؟

أنزلت برناديت يده عن كتفها وقالت :

- كلا ٠٠ المحاضرة ستبدأ بعد قليل وعلي الانصراف .

في المساء لم يستطع شاهين مقاومة رغبته في رؤية مي ومواصلة ما بدأ ٠٠ هكذا وصل إلى المزرعة ودق الباب .

خرج له فادي وعلى أذنيه (الووك مان) ٠٠ رفع فردة عن أذنه ٠٠ مد يده لمصافحة شاهين :

- هل كان الصيد وفيراً في الجامعة اليوم ؟ .

رد عليه شاهين بعصبية :

- بالعكس ٠٠ اليوم من دون الأيام حاشفه ناشفة ٠٠ قاده إلى الداخل وهو ينادي بأعلى صوته على ناجي .

حينما التأم أهل البيت حول الضيف بمن فيهم مي ٠٠ قال شاهين :

- جئت دون موعد سابق ٠٠ لأن الموضوع لا يحتمل التأجيل ٠٠ بعد ستة أيام ستعرض القناة التاسعة في التلفزيون فيلماً عن حياة جولدمائير ٠٠ فما هي ردة فعلنا على ذلك ؟

ابتسمت مي ابتسامة عريضة :

- ما عهدناك يا شاهين مهتماً بمثل هذه الأمور من قبل .

- ولم لا ٠٠ ألست عربياً مثلك ٠٠ ويهمه انتصار الحق العربي على الباطل الصهيوني في فلسطين وعلى كل باطل آخر في أي مكان من الوطن العربي .

قاطعه ناجي :

- لسنا هنا بصدد الحكم على دوافع شاهين أو صدق انتمائه القومي ٠٠ علينا أن نفكر كيف سنواجه هذه الحماقة التي سترتكبها القناة التاسعة .

قال فادي :

- هناك طريقتان لمواجهة هذا الموقف ٠٠ الطريقة العربية التي درج عليها آباؤنا وأجدادنا ٠٠ مظاهرة احتجاج تنتهي فاعليتها بانتهاء المظاهرة ولا يسمع بها أحد غير الذين تصادف مرورهم في الشارع في ذلك الوقت ٠٠ ثم نضع يدنا على خدنا ونندب حظنا التعيس ٠٠ هذه طريقة ٠٠ والطريقة الأخرى ٠٠ الطريقة الأسترالية التي تعتبر الإعلام صناعة لها أصولها وتقنيتها مثل أي صناعة أخرى ٠٠ تعلمت من متابعة أشرطة الأغاني والموسيقى ٠٠ الأغنية التي يصرف على الدعاية لها حسب أصول الصناعة تنجح ولو كانت متوسطة الجودة ٠٠ أما الأغنية الجيدة التي لا تتم لها الدعاية فإنها لا تلاقي نفس الرواج .

فوجئ ناجي ومي بدخول فادي على الخط ٠٠ مثل مفاجأتهم السابقة باهتمام شاهين بما يحدث ٠٠ فكلاهما شاهين وفادي في نظر مي وناجي مريضان مهووسان بالحضارة الغربية وتقاليعها وميئوس من شفائهما ٠٠

قال ناجي لشقيقه :

- ما هو تصورك لما يمكننا عمله ؟

- نبدأ بإعداد قائمة بالجرائم التي ارتكبتها حكومة جولدا مائير منذ انتخابها حتى قرارها الوحشي بقصف مدرسة بحر البقر الابتدائية في مصر بالقاذفات الثقيلة ٠٠ ثم نطبع مئات النسخ عن هذه القائمة ٠٠ نرسلها إلى كل من نتوسم فيه الضمير الحي ٠٠ مناشدينه التدخل لإيقاف عرض هذا الفيلم الذي لا يتحدى مشاعر العرب والمسلمين فقط ٠٠ بل وجميع المهتمين بحقوق الإنسان .

أحضرت مي ورقة وقلماً وقالت :

– لنبدأ الآن في إعداد القائمة ٠٠ على كل واحد منا أن يبلغ بها أكبر عدد ممكن من الناس ٠٠ سأتولى أنا إبلاغ الاتحادات النسائية ولجان حقوق الطفل وحقوق الإنسان واتحاد الكنائس .

قال شاهين :

– سأبلغ النقابات والنوادي الاثنية والأحزاب اليسارية في الجاليات الكبرى ٠٠ أما أنت يا ناجي فعليك إبلاغ المساجد والجمعيات الدينية والنوادي العربية والأحزاب التقدمية في الجالية .

تدخلت لينا لأول مرة في النقاش :

– أنا علي إبلاغ العائلات العربية التي نعرفها ٠٠ وسأطلب من كل فرد أكلمه أن يجند عائلته للاتصال بأكبر عدد ممكن من الناس وتجنيدهم للاحتجاج بالتلفون و التلكس والبريد ٠٠ والمقالات في الجرائد .

حينما عاد شاهين إلى البيت كان يحس بالرضى عن نفسه لأول مرة منذ وصوله القارة الأسترالية ٠٠ ها هو يقوم بعمل نافع لأمته ولو كان الهدف منه الحصول على تقدير مي السلطان ٠٠ شيئاً فشيئاً تحمس شاهين لدوره الجديد وتضاعف شعوره بالرضى .

عادت أخته رُلى من الجامعة متأخرة فوجدته منهمكاً في تنفيذ ما تم الإتفاق عليه في بيت السلطان ٠٠ شرح لها الخطة محاولاً جهده بأن يكون مقنعاً وأن يكسب تعاطفها معه .

قالت رُلى في سرها : سأطلب من فرانك المساعدة ٠٠ فالجالية الإيطالية كبيرة ونفوذ عائلته لا يستهان به .

استهل ناجي الحملة بخطاب إلى مدير القناة التاسعة ٠٠ قال فيه :

– اسمح لي يا سيدي أن أحيلك إلى تصريحات الرئيس الفرنسي السابق جورج بومبيدو التي يقول فيها (سألت جولدمائير رئيسة وزراء إسرائيل إن كانت تعرف أن قاذفاتها الثقيلة ذاهبة لقصف مدرسة للأطفال في بحر البقر بمصر ‥ أجابت دون تردد : نعم كنت أعرف ‥

حين ظهرت عليَّ علامات الاستنكار ‥ تابعت : وما الفرق ‥ هؤلاء الأطفال سيكبرون ويصبحون جنوداً يهاجمون إسرائيل) .

لم ينس ناجي أن يختم خطابه بعبارات التشجيع ‥ أن قراركم بوقف عرض الفيلم ‥ من شأنه أن يزيد احترامنا وثقتنا في محطتكم ‥ ويعزز شعورنا بالانتماء إلى وطننا الجديد أستراليا .

(٩)

أطل عبد الحميد من نافذة مكتبه في الدور العشرين ٠٠ لاحظ أن الشوارع بدأت تزدحم بالسيارات ٠٠ تذكر أن اليوم هو الجمعة وأن عليه أن يعود مبكراً إلى مزرعته ٠٠ قبل أن يبلغ الزحام ذروته ٠٠ فالكل يغادر المدينة الآن إلى الريف لينعم بعطلة نهاية الأسبوع ٠٠ تنهد عبد الحميد :

– عام كامل مر على افتتاح المكتب ٠٠ إلا أن النصابين ما زالو يطاردونني ومازلت في نظر الكثيرين منهم ذلك العربي الأبله الذي يملك بئراً للنفط في حديقة منزله ٠٠ ولا يعرف كيف ينفق ملايينه .

حدق في تقاطع شارعي بيرك وفكتوريا ٠٠ ما زالت تلك اللوحة اللعينة معلقة هناك ٠٠ دعاية للملابس الداخلية ٠٠ رجل رياضي برزت عضلات جسده العاري إلا من سروال ضيق قصير ٠٠ يحمل بذراعيه امرأة لعوباً ٠٠ بملابسها وقد اندفعت أعضاؤه التناسلية كأنها تخترق مؤخرة المرأة التي استقرت على فوهة بندقيته .

كم مرة رأى أولاده هذا الإعلان الذي غطى كل شوارع المدينة ٠٠ كأن برامج التلفزيون وأفلام السينما والمجلات الخليعة التي تباع على الأرصفة ٠٠ كأن ذلك كله ليس كافياً .

أخيراً عاد إلى كرسيه ٠٠ ليستقبل آخر زبائنه قبل فسحة الغذاء ٠٠ قدم الرجل بطاقته .

– شركة بلو ريبان للحوم .

سأله عبد الحميد بعد أن استقر في كرسيه :

- بماذا أستطيع أن أخدمك ؟

- لدينا لحوم خنازير بأسعار لا تنافس .

- زبائننا في الشرق الأوسط مسلمون ولا يأكلون لحوم الخنازير .

سأل الرجل ببلادة :

- حتى لو كانت مذبوحة على الطريقة الإسلامية .

هز عبد الحميد رأسه :

- حتى لو كانت مذبوحة على الطريقة الإسلامية .

استأذن الرجل ومضى قبل أن يكمل قهوته .

أخيراً أدخلت سكرتيرته المحامي الذي اضطر لانتظاره وقتاً طويلاً .

سأل محاميه بعصبية :

- لماذا يعتقد الأسترال أنني غبي ومتخلف .. ويستخفون بذكائي ويقدمون لي عروضاً سخيفة .

أجابه مستر استفينسن :

- الاسم وحده يشي بذلك .. ماذا تتوقع من رجل يحمل اسم عبد الحميد في مدينة ملبورن في آخر سنوات القرن العشرين .

- لماذا لا نسميك اسماً استرالياً .. فيرتجعون عنك .. فكر قليلاً ثم هتف :

- جورج .. جورج كنج .

صاح عبد الحميد :

- لا .. لن أغير اسمي .. سلبوا مني الوطـــن .. وحلمي الكبير في تحقيق الحرية والوحدة والعدل .. ولن أسمح لهم بأن يسلبوا اسمي ولا اسم عائلتي .. ثم اتبع ذلك بالعربية :

- عبد الحميد السلطان على سن ورمح .

أشـــار محاميه إشـــارة بذيئة مـــن أصبعه ثم غمغم بكلمـــات لم يفهمها عبد الحميد ٠٠ لكنه توقع أن تكون من عيار (خرجك ٠٠ أو تصطفل) .

سلمه المحامي الأوراق القانونية للشركة ٠٠ (استريبيان اندستريز) الشركة الأسترالية العربية المحدودة (للتجارة والصناعة والزراعة) .

قال المحامي :

– بموجب هـــذه الأوراق تستطيع ممارسة كل الأعمال فـــي أســـتراليا مـــا عـــدا المقاولات ٠٠ وإنني أطلب منك ألا توقع أية أوراق قبل أن أطلع عليها ٠٠ هؤلاء النصابون الذين يحومون حولك إذا اصطادوا توقيعك ٠٠ فسوف تواجه مشـــاكل لا حصر لها.

اقترب المحامي من عبد الحميد وهمس في أذنه :

– هذا عنوان المحاسب القانوني الذي اخترته لك وهو خبيـــر فـــي التهـــرب مـــن الضرائب .

ظهر الاستنكار على وجه عبد الحميد ٠٠ ولكن المحامي تابع بحماس :

– كلهم هنا يفعلون ذلك ٠٠ أم أنك تريد أن تدفع جل أرباحك لحكومة أستراليا .

هتف عبد الحميد وهو يلوح بسبابته في وجه الرجل :

– اسمع يا سيد استيفينسن ٠٠ لقـــد كسبت كل قرش أملكه بعرق جبينـــي ٠٠ لـــم أخطط لكي أصبح ثرياً ٠٠ كنت قانعاً بعملي موظفاً في أحد مكاتب العقارات فـــي الخليج ٠٠ المكتب لم تكن لديه السيولة ليدفع راتبي الزهيد ٠٠ أعطـــوني نصـــف الراتب ٠٠ والنصف الآخر اشترطوا عليَّ أن أقبل به أسهماً في العقـــارات التـــي يمتلكونها خارج المدينة ٠٠ أراضٍ عجـــزوا عـــن تسويقها رغم ضآلة سعرها ٠٠ مربعات ٠٠ ومستطيلات ٠٠ ثبتت عليها علامات المساحة التي ما كانت تصـــمد طويلاً أمام رياح الصحراء ٠٠ دائماً يجدونها مدفونة تحت وابل من الأتربة ٠٠

فيعودون إلى إبرازها منتظرين الزبون الذي لا يجئ ٠٠ فجأة وقعت الحرب في الشرق الأوسط ٠٠ وأعقبتها الطفرة ٠٠ قفزت أسعار النفط من ستة دولارات للبرميل إلى أربعين دولاراً ٠٠ كبرت المدينة بشكل خرافي والتهمت كل ما حولها من الأراضي ٠٠ قفز سعر الأراضي بجنون .

صاحب مكتب العقارات المتدين سلمني شيكاً بنصيبي ٠٠ حينما قرأت الرقم أصابني الذهول ٠٠ حملقت فيه غير مصدق ٠٠ قال لي وهو يتخلل ذقنه البيضاء بأصابعه المعقوفة :

– في الحديث الشريف (يا ابن آدم إن الرزق ليطلبك طلب الموت لك) .

جاهدت كثيراً لكي لا تفسدني الثروة ٠٠ عاهدت نفسي ألا أنفق ما كسبته حلالاً طيباً ٠٠ إلا في الحلال الطيب ٠٠ وإذا كان لحكومة أستراليا أي دولار في أرباحي فلتأخذه كاملاً غير منقوص .

نظر إليه استيفنسن ٠٠ كمن ينظر إلى معتوه :

– شأنك وما تريد .

ثم تابع بسخرية :

– أما زالوا يتعقبونك ٠٠ أعني عملاء المخابرات الأسترالية ؟

– نعم .

– هل تريد أن ترفع دعوى عليهم ٠٠ بإمكاني أن أفعل ذلك وألزمهم بمصاريف الدعوى ٠٠ عليك فقط أن تصور السيارة التي تتعقبك ٠٠ صدقني القضاء هنا مستقل ٠٠ وهم يحسبون لنا نحن المحامين ألف حساب .

– لا داعي لذلك ٠٠ سوف يتثبتون من براءتي بأنفسهم .

أوصله عبد الحميد إلى الباب ٠٠ حين رجع كان مرهقاً ٠٠ أحضرت له السكرتيرة فنجان الشاي ٠٠ وابتسمت بحنان بالغ :

– تتعب نفسك كثيراً يا سيدي .

تلفت حوله ٠٠ كان جميع الموظفين قد انصرفوا لتناول الغذاء .

– هل تأمرني بشيء ؟ .

ثم تابعت بدلال :

– أنت طيب معي وأعدك بأن ألبي كل طلباتك .

تأملها عبد الحميد كأنه يراها لأول مره ٠٠ كانت فارعة الطول شقراء بعيون زرقاء ترتدي قميصها على اللحم دون حمالات ٠٠ لاحظ أن حلمتي ثدييها تنطبعان بوضوح خلف القميص ٠٠ وعلى خصرها الرشيق تنعقد تنورة واسعة وطويلة .

تذكر باربي [1] اللعبة التي يبيعونها في محلات اللعب ٠٠ ثم هتف في سره (وصلت الموس إلى ذقن السلطان) .

– لا ٠٠ شكراً ٠٠ تستطيعين المغادرة .

انتظر عبد الحميد حتى عادت ملك ٠٠ ترك المكتب في عهدتها ٠٠ وذهب لتناول الغذاء ٠٠ همس لنفسه ٠٠ هذه هي فرصتها لتفتيش كل شئ ونقل صورة عنه لجهاز المخابرات ٠٠ سيصابون بخيبة أمل كبيرة ٠٠ وسيكفون عن ملاحقتي.

❋❋❋

---

١. باربي : دمية مشهورة تمثل فتاة شقراء بالمواصفات التي تختصر مقاييس الجمال في المرأة الغربية .

فترة الغذاء ٠٠ هي أكثر فترات النهار إمتاعاً ٠٠ فبين الثانية عشرة والواحدة ظهراً كان يطيب لعبد الحميد أن يتجول على قدميه في قلب ملبورن ٠٠ يتأمل واجهات المتاجر الكبرى أو يتناول شطيرة في أحد مطاعم الوجبات السريعة ٠٠ أو فنجان كابتشينو ٠٠ متشاغلاً بمتابعة رجال الأعمال في بزاتهم الأنيقة ٠٠ والصبايا في ملابسهن الشفيفة ٠٠ وابتساماتهن الوريفة ٠٠ يحاول استقراء السحن المختلفة ليميز الأصول العرقية لكل سحنة ٠٠ الأوروبي ٠٠ الآسيوي ٠٠ والأمريكي ٠٠ والعربي .

تقرع أذنه لغات شتى ٠٠ بعضها كالهديل ٠٠ وبعضها كالصهيل .

في ذلك اليوم كان المطر قد توقف وسطعت شمس شتائية خجولة ٠٠ أغرت عبد الحميد بمتابعة جولته وسط المدينة ٠٠ قادته قدماه إلى المطعم الذي تعمل فيه منال عنبر وزوجها وأولادها ٠٠ شم رائحة اللحم وهو ينضج في المحل ٠٠ أبو الصخور يحز بسكينه الطويلة رقائق اللحم المعلقة على السيخ ٠٠ والأولاد في المطبخ يعدون أصناف الطعام ٠٠ أو يغسلون الأطباق ٠٠حياهم بمودة .

قالت منال :

– الحمد لله أنك وصلت ٠٠ حرروا فلسطين في غيبتك ٠٠ أشارت إلى ركن قصي في آخر المطعم التأمت فيه حلقة الفرسان ٠٠ سمع صوت أبو جيمي يذيع فضائله على العباد .

– هادا خيك هنا ؟

– لا تصدق عشرة في الميه من كلامو ٠٠ هه ٠٠ أنا حذرتك ٠٠ ما عاد لك برقبتي خطية .

تناول عبد الحميد ساندويشة السوفلاكي وعلبة الكولا ٠٠ وذهب لينضم للحلقة ٠٠ أفسحوا له مكاناً بينهم ٠٠ مد شطيرته باتجاههم :

– تفضلوا .

– سبقناك ٠٠ بالهنا والشفا ٠٠ صحة ٠٠ يخليك .

قضم قضمة كبيرة ٠٠ وأخذ يمضغ ببطء .

تابع أبو جيمي شقيق منال عنبر حديثه :

– اعتصم الحاج أمين الحسيني في الحرم القدسي ٠٠ لم يتجرأ الإنجليز على اقتحام الحرم واعتقاله بقى أنا كل يوم أعمل قالب جاتوه وأحملو للمفتي ٠٠ سيدنا المفتي يبتسم ويقول (يا صبحي لشوه الغلبة ٠٠ بتكلف حالك كثير) ٠٠ ويأمر مرافقيه بأخذ الجاتوه ٠٠ أنا كنت فاتح محل جاتوه في حارة اليهود بالقدس ٠٠ هما زبوناتي ٠٠ بهاداك الوقت العرب ما كان إلهم بهيك أكلات ٠٠ الله ما يعيني على الكذب ٠٠ مش كل العرب ٠٠ بيت النشاشيبي وبيت نسيبه وبيت العلمي كانوا يشترو مني ٠٠ أنا لقطت الصنعة من خريستو بولوس اليوناني إللي كان فاتح براس بيروت ٠٠ رزق الله على هاديك الأيام .

قال قدري :

– تعي يا منال سكتي أخوكي ٠٠ وخلينا نحكي في شي مفيد .

إحتج أبو جيمي :

– مش عيب عليك تتخبى ورا منال .

– منال مثقفة وحديثها شيق ٠٠ مش تفنيص .

رد أبو جيمي ساخراً من منال و زوجها :

– صحيح منال أخذت البكالوريا ٠٠ لكن ثقافتها مش كل هالقد ٠٠ أختي اشتغلت في الحملة الانتخابية لتقي الدين الصلح ٠٠ أيام ما طلعت مودة الميني جيب ٠٠ انبسط منها تقي بك وتوسط لها ٠٠ اشتغلت مخبرة في جريدة بتبيع عشرين نسخة ٠٠ المثقف هوه جوزها أبو الصخور .

سمعهما أبو الصخور فجاء وسكين الشاورما في يده :

– أنا كنت عريف بالجيش اللبناني ٠٠ يعني ثقافتي عسكرية ٠٠ أما منـــال فهـــي مثقفة غصب عنك يا أبو جيمي ٠٠ شوقولكم يا شباب ؟ .

هتف سعيد غيث وقد تذكر بلاءها مع الفلسطينيين في المظاهرات :

– منال أخت الرجال .

سن أبو الصخور سكينه وعاد إلى الوجاق يقطع لحمة الشـــاورما قبـــل أن تتفحم .

قال عمر الشحات رئيس الجمعية الإسلامية :

– الفلسطينية يحطوا إيديهم ورجليهم في ميه باردة ٠٠ شيخ الأفغان خطـــب فـــي الجامع ووعد أنو الأفغان بعد ما يهزموا الاتحاد السوفييتي ٠٠ بدهم يوجهوا قواتهم المنتصرة لتحرير فلسطين .

استفز الخبر قدري الذي كان يحتسي نبيذه المعتق .

– قال يهزموا الاتحاد السوفييتي قال ٠٠ ما فشرو .

ثم مال على عمر الشحات يغمز قناته :

– شو صار في الدعوى اللي رفعوها عليك أهل الطالبة الباكستانية اللي اعتـــديت على شرفها .

– طلعت كيدية ٠٠ وسحبوها .

– بشرفك قديش دفعلتهم حتى يبرؤا ساحتك .

أوشك الموقف على الانفجار ٠٠ سارع سعيد غيث ليغير الموضوع قبل أن تشتعل النار .

– أذكركم يا شباب (بالباربكيو) الذي سيقيمه اتحاد عمـــال فلسطين ٠٠ فـــــرع ملبـــورن في حديقة " ماروند دام " يوم الأحد القادم ٠٠ كل ناس يجيبـــوا لحمـــتهم ومشروبهم ويشاركونا .

سأل عبد الحميد :

– والبرنامج ؟

– دبكات ٠٠ وأغاني ومسابقات ثقافية ٠٠ ورياضية .

قال قدري :

– يعني ما فيها خطب ٠٠ وتسلمونا لفوزي خميس يصدع روسنا .

ثم وجه حديثه لمنال :

– بتروحي يا منال .

هتفت من موقعها أمام الوجاق :

– أنا أول واحدة ٠٠ ما فينا نتأخر عن الثورة الفلسطينية .

قال قدري لممثلي التنظيمات :

– وإنتو .

– بدنا نرجع لتنظيماتنا ٠٠ ونمشي حسب القرار اللي بتخدوه .

– تضربو شو ملتزمين .

أكد لطفي عواد :

– الدعوة وجهت لكل القوى التقدمية ولن يتأخر أحد .

(١٠)

أضيئت الأنوار الكاشفة حول المسبح في مزرعة السلطان وبدأ أولاده في استقبال أصدقائهم من العرب والأجانب ٠٠ السلطان مسافر لقضاء بعض الأعمال ٠٠ وزوجته مدعوة لقضاء السهرة عند صديقتها زوجة علي زيدان ٠٠ والأولاد (إيدهم ما تعطيهم) .

فادي أعد أغانيه المفضلة ونصب الأورج والسماعات وجهاز التسجيل حول المسبح ممنياً النفس باحتفال كبير إذا تحقق النصر الموعود وامتنعت القناة التاسعة عن إذاعة الفيلم الخاص بجولدا مائير .

لم يكن هناك ما يشير إلى أن إدارة القناة التاسعة قد رجعت عن قرارها بإذاعة الفيلم ٠٠ لقد سارت البرامج سيرها المعتاد ٠٠ ورغم ذلك جاء المشاركون في حملة الاحتجاج إلى المزرعة ٠٠ إن لم يكن للاحتفال بانتصارهم ٠٠ فلكي يواسي بعضهم بعضاً .

أول الواصلين كانوا أبناء وبنات أبو جيمي جاءوا في سيارة معطوبة أحدث شكمانها ضجة كبيرة منذ دخلوا بوابة المزرعة حتى أطفؤوا المحرك ٠٠ أحضروا معهم من طيبات التيك أوي الذي يعملون به ٠٠ الدجاج المشوي على الفحم ٠٠ رقائق البطاطا المحمرة ٠٠ السلطة اليونانية المعمرة بقطع الجبن البيضاء ٠٠ وضعوا كل ذلك على المائدة ٠٠ رتبوه بعناية بالغة لحين ابتداء السهرة ٠٠ بعدهم جاء ياسر ابن قدري شامية ومعه صديقته الأسترالية ٠٠ ثم جاء أبناء منال عنبر ٠٠ آخر الواصلين كان شاهين وأخته رُلى .

قالت مي السلطان في سرها :

– لابد أنه كان مشـــغولاً بتصعيد الرقم ٠٠ أكيد وجد طالبـــة جديـــدة استســـلمت لإغوائه ٠٠ فانشغل بها فترة ما بعد الظهيرة .

حيا شاهين الحاضرين ٠٠ عانق بعضهم وصافح البعض الآخـــر ٠٠ ثـــم نظر إلى ساعته وقال :

– لم أتأخر ٠٠ سوف يبدأ الفيلم حالاً ٠٠ أو يقدمون اعتذاراً للمشاهدين ٠٠ فعلنـــا ما بوسعنا ولا أحد يضمن النتائج .

جلسوا أمام التلفزيون ٠٠ باري الذي انخرط في اللعبة منذ البداية وجند أصـــدقاءه في البب [1] وأصدقاء كريســـي في نادي اللياقة البدنية (الجيم) للمشـــاركة فـــي الحملة ٠٠ انهمك هو وكريسي بتوزيع المشروبات علـــيهم ٠٠ جـــاءت اللحظـــة الحاسمة وقدم المذيع الفيلم وبدأ العرض .

خيم على رؤوسهم صمت حزين ٠٠ أخذوا في ارتشاف أكـــوابهم دون أن يعلق أحدهم بكلمة واحدة ٠٠ لقد بذلوا كل ما في وسعهم ٠٠ حقـــاً كـــان أســـبوعاً مضنياً من الاتصالات وتوزيع الرسائل والمناشدات وتعبئة الرأي العام ٠٠ أسبوعاً أفرغوا فيه كل الوسائل التي تعلموها عن صناعة الإعلام في العالم الغربي ٠٠ لم يطلبوا تدخل الآباء أو مساعدتهم ٠٠ كانوا يريدون تحقيق فوز يبـــرر شـــعورهم بالانتماء لعالمهم الجديد ٠٠ برهان واحد فقط على أن هذا السد الذي بنـــاه اليهـــود قابل للاختراق ولو مرة واحدة .

حبسوا أنفاسهم وهم يقاومون شعوراً بالضعة والهوان بعد أن انطلق الفـــيلم في وجوههم كالزوبعة الهوجاء .

---

١. البب : البـــــار .

أراد ناجي مغادرة المكان والانزواء في غرفته ٠٠ لكن برناديت تشبثت بيده طالبة منه أن يتجمل بالصبر وأن لا يترك ضيوفه .

مرة لحظات عصيبة جداً ٠٠ كان الوقت فيها يتمدد كما يتمدد الزئبق ٠٠ هبت نسمات حارة لفحت وجوههم .

قال باري ٠٠ سأعطي هذه القناة الضالة الضربة القاضية الفنية ٠٠ أعطني الهاتف :

لعلع صوت باري في أذن الموظفة التي استقبلت المكالمة :

– اسمعي يا سيدتي ٠٠ أنا يهودي ٠٠ ولا يشرفني أبداً ما فعلته هذه القاتلة جولدا ٠٠ إنكم ضالعون مع العرب في توسيخ سمعتنا بعرض مثل هذا الفيلم ٠٠ لماذا لا تعرضون فيلماً عن حياة أينشتاين أو أي يهودي محترم مثله ٠٠ سحقاً لكم ولمحطتكم القذرة .

أغلق باري سماعة الهاتف بقسوة ٠٠ نظروا له مشدوهين :

– هل حقاً أنت يهودي ؟!

– جدتي لأمي يهودية ٠٠ وطبقاً لشريعتهم ٠٠ فأنا يهودي حتى ولو تم تعميدي مسيحياً في حاضرة الفاتيكان .

قال ناجي :

– هل يعقل أن يكون اليهود قد اشتروا كل شئ في هذا البلد ٠٠ كل شئ ٠٠ كل شئ .

فجأة انقطع الإرسال ٠٠ ظهرت المذيعة بوجه واجم مضطرب ٠٠ أعلنت بكلمات مقتضبة قرار إدارة القناة :

– أيها السادة المشاهدون ٠٠ نأسف لعدم متابعة عرض هذا الفيلم عن حياة جولدا مائير نظراً لمئات الرسائل والمكالمات التي وصلتنا محتجة عليه .

هبوا جميعاً لمعانقة بعضهم بعضاً .

التحم باري وكريسي في عناق مبالغ فيه ٠٠ ناجي اكتفى بالضغط على يد برناديت وهو يقول بإنجليزية صافية :

- *Fare Enough* [١]

شاهين حاول اقتناص الفرصة ليقبل مي التي أفلتت من يده بأعجوبة ٠٠ لاحظ ناجي محاولته ٠٠ لم يتدخل حتى لا يظهر أمام برناديت بمظهر الشاب الغير المتحضر ٠٠ مي عانقت شقيقها فادي وهنأته على نجاح فكرته بتنظيم الحملة ٠٠ فادي أغلق التلفاز وضغط على جهاز التسجيل فانطلقت الموسيقى ٠٠ وبدءوا جميعاً في الرقص فرادى أو أزواجاً .

سحبت برناديت ناجي من يده إلى الحلبة ورقصت معه ٠٠ خصته بالوقت كله ٠٠ لم تسمح لأحد غيره بالاقتراب منها .

لاحظ فادي ذلك فانتحى بشقيقه جانباً ٠٠ وهمس في أذنه وهو يتطوَّح :

- أنا سعيد من أجلك يا مونك ٠٠ صارلك الآن صديقة أسترالية ٠٠ برناديت فتاة جميلة ومتطلبة ٠٠

غمز بعينيه :

- لا تخذلنا يا مونك ٠٠ سمعة العرب والمسلمين مرهونة بطول باعك وقوة ذراعك .

ضرب بكفه على عضلة ذراعه وأسند زنده في الهواء .

تأمله ناجي ٠٠ وقال بفزع :

- أنت سكران ٠٠ هل عدت للشرب ثانية ؟

---

١. **Fare Enough** : غاية عدل .

– لنقل أنني قبلت كأساً من باري ·· على سبيل المجاملة .

أمسك ناجي بخناقه ·· تذكر الضيوف الذين يحيطون بهما ·· أطلقه وهو يتميز من الغيظ .

مي اصطحبت كريسي ولينا للبدء في تجهيز البوفيه .

حينما انتهوا من تناول عشائهم انتبهوا إلى أن القمر صار بدراً ·· أطفأوا الكشافات حول المسبح ·· طلبوا من فادي أن يعزف لهم على الجيتار ·· عـزف فادي حتى فاض الشجن بالجميع

الأسبانية صديقة جيمي طلبت منه أن يعزف لها فلامنكو ·· رقصت حتـى ثمـل الحاضرون بالرقص والموسيقى .

كان هذا أول انتصار يحققونه في هذا المغترب السحيق .

وضع فادي شريط أغنيته المفضلة في المسجل ·· فانبعث اللحن قوياً متسلطاً :

Who can stop the music (1)
Music in the sky
Music in the sea
Music in the heart
Which no body can see
Who can stop the music
No body can stop the music

---

١. من يستطيع إيقاف الموسيقى
موسيقى في السماء
موسيقى في البحـر
موسيقى في القلـب
حيث لا يمكن أن يبصرها أحد
من يستطيع إيقاف الموسيقى
لا أحـد يـسـتطيع ذلـك

(١١)

لم يكن من الصعب العثور على العرب في حديقة المارونـدا ٠٠ صـوت مارسيل خليفة يلعلع في مكبرات الصوت :

- إنـي اختـرتك يـا وطـني
حبـاً وطـواعيـة
إنـي اختـرتـك يـا وطـني
سـراً ٠٠ وعـلانيـة
إنـي اختـرتـك يـا وطنـي
فليتنكـر لـي زمنـي
يا وطنـي الرائـع يا وطنـي

أما الذين لم يكـن وطنهم رائعـاً كالوطن العربـي ٠٠ أبنـاء الجاليـات الأخرى ٠٠ فقد انتحوا الجوانب القصية من الحديقة ٠٠ بعيداً عن الضجيج الـذي تحدثه المكبرات ٠٠ شاهد عبد الحميد الأعلام الفلسطينية تخفق علـى المظـلات الخشـبية التي احتلتها الجالية ٠٠ شم روائح الشواء تعبق في المكـان ٠٠ تحلـب لعابه ٠٠ أوقف سيارته ٠٠ مشى بين صفين من أشجار الورد التي كانت في أوج تفتحها ٠٠ أولاده حملوا طعامهم ومضوا إلى أحد الأفران الحديدية التـي نصـبتها إدارة الحديقة وكدست حولها أكوام الحطب المعد خصيصاً لاستخدام الزوار .

وقفت منال عنبر تلوح بالشوكة الكبيرة التي تقلب بها قطع اللحم على حديدة الفرن ٠٠ غنت لكبرى بنات عبد الحميد مداعبة :

- يا بنت السلطان .

رقص زوجها وهو يسرق باقي الأغنية :

- حني على الغلبان .

رقص معه الواقفون حول الفرن وأكملوا الغناء :

- الميه في إيديكي يا حلوة

وأنـــا قلبـــي عطشـــــان

يـــا بنـــت الســـــــلطان

عانق عبد الحميد آل عنبر ٠٠ وضعت له ابنته كرسياً فجلـــس ٠٠ احـــتج قدري من المظلة المجاورة :

- يا منال انتي بتقطعي علينا ٠٠ هادا ضيفنا والا بدك تعلي التيكن [1] حتـــى فـــي الرحلات .

أجاب زوجها :

- اتفضل يا أبو ياسر بلاك ما بتحلى ثم همس في أذن عبد الحميد .

- ياسر جايب صديقتو الأسترالية والظاهر أبوه بدو يخلي الجو للعشاق .

حمل قدري كرسيه ووضعه إلى جوار عبد الحميد وأشار إلى زوجته :

- الحقيني يا مره ٠٠ وسيبي الأولاد ياخدو راحتهم .

ثم همس في أذن علي زيدان :

- إللي ما بيجي معاك ٠٠ تعال معو .

وجه الخطاب لمنال :

- إحنا في معية السلطان .

---

١. التيكن : مدخـــول المحـــل .

قالت منال وهي تناوله سيخاً من اللحم المشوي :

- وصلت يا أبو ياسر .. وصلت .

تناول السيخ .. ومده باتجاه السلطان .. سحب عبد الحميد قطعة من اللحم المشوي .

التهم قدري باقي القطع :

- شو هالطعم اللي بجنن .. ما بدك تعلمينا يا منال كيف بتبهري اللحمة .

قال مصطفى :

- السر في النفس .. مش في البهار .

صاحت زوجة قدري :

- شو يا مصطفى يعني كل نسوان الجالية ما في واحدة إلها نفس عالطبيخ إلا مرتك .

همس قدري في أذن عبد الحميد :

- هيك ببلشو في بعض .. وإحنا بناكل على رواقة .

وصل سعيد غيث مع عائلته .. تأخرت زوجته قليلاً للعناية بالأولاد .

قال قدري وهو يعانقه :

- هادا الإرهابي الخطير سعيد غيث .

نفى سعيد التهمه :

- أنا مش ارهابي .. مرتي الإرهابية .

وصلت زوجة سعيد .. قدمها لعبد الحميد :

- ليز .. زوجتي .. من اصل إنجليزي .. وهي متواضعة لدرجة أنها تسلم على العرب بطرف أصابعها .. مش زي البيض في جنوب أفريقيا اللي بيسلموا على الملونيين بالإشارة .

تنهدت زوجته كمن يتلقى قضاء لا يستطيع دفعه .

وصل شقيق منال عنبر السيد صبحي المزين أبـــو جيمـــي وســـلم علـــى الحاضرين ٠٠ أشار لعائلته أن تحتل مظلة قريبة وجلس إلى جوار عبد الحميد :

– بدي أنادم السلطان .

– ما في سلطان و انت موجود يا أبو جيمي .

– شو أخبار الحاج أمين الحسيني ٠٠ ما كملت القصة .

تبسم أبو جيمي كأنما واتته فرصة العمر :

– يا حرام المفتي طلع من القدس هريبة .

أنا بقيت بالقدس الغربية ٠٠ حسبوني يهودي ٠٠ على كيس بحكـــي عبرانـــي ٠٠ ومنخاري معكوف وكان عندي صديقة يهودية " ماروكية "[1] عايشـــة معـــي ٠٠ الخلاصة بقيت بالقدس لغاية ما جلوب باشا بعت ورايا ٠٠ وقاللي : (برضيك يـــا صبحي ٠٠ الجيـــش العربي إللي بحمي أطـــول حـــدود مع العدو ٠٠ مـــا ياكـــل جاتوه ٠٠ احضر لعمان وأنا بضمن لك شغل ليوم الشغل) ٠٠ فتحت معمل بعمان والله قال خود عندك ٠٠ القصور ٠٠ والوزارات ٠٠ والجيش ٠٠ والشرطة .

سحب أبو جيمي نفساً من أرجيلته الفارهة .

أكمل عبد الحميد من عنده :

– وحرس البادية .

اعترض أبو جيمي وهو ينفث دخان أرجيلته :

– لا هادولا ما بياكلو جاتوه ٠٠ هادول عايشين عالعجوة .

داعب أبو جيمي أرجيلته وتابع :

– بعد خمس سنين بعمان ٠٠ عبد الحميد شومان قاللي ٠٠ يا أبو جيمي انت أكبر زبون في البنك العربي .

---

١. ماروكية : من يهود مراكش (المغرب) .

نظر أبو جيمي إلى الجالسين فرأى الريبة في عيونهم ٠٠ استطرد .

– أيامها كانت الناس بتحط فلوسها تحت البلاطة ٠٠ ما كان يتعامل مع البنـــك إلا كل قلب قوي .

جاءت منال عنبر تحمل صينية القهوة :

– قصدك كل واحد ما تعب بالمصاري .

تجاهل تعليقها وتابع :

– لك أنا صرت شريكو للشريف ناصر .

شخر سعيد غيث :

– في الجاتوه ؟!

– يا ابني شو بدك بالهاحكي ٠٠ أنا صرت شريكو في الأشيا التانيـــة ٠٠ وهـــوّه قدمني للملك ٠٠ الملك حســـين كان يحبني كتيـــر ٠٠ ما ياكـــل الجاتوه إلا مـــن إيدي ٠٠ يا بيي ٠٠ الملكة دينا شو كانت آدمية .

هتف سعيد غيث :

– و كيف ضاعت الصحوبية إللي بينكم ؟

– نسفوا هزاع المجالي ٠٠ اكتشف الملك إنو إلي إيد في الموضوع ٠٠ هربت مع جماعة القوميين العرب لسوريا ٠٠ وبعد ما كنت من أعز أصدقاء الملك ٠٠ صار يعتبرني ألد أعداؤه .

كركرت أرجيلة أبو جيمي :

– كنت أدخل على الملك حسين في غرفة النوم وهوه بالبيجاما ٠٠ رزق الله علـــى هاديك الأيام .

قام سعيد غيث من مجلسه ٠٠ تمدد على الأرض المعشبة ٠٠ نادى أولاده بصوت عالٍ كأنه يقدمهم للحاضرين واحداً واحداً ٠٠ لم يفتـــه أن يذكر عمر كل منهم ٠٠

سـارة في الرابعة عشـره من عمرها ٠٠ طارق في العاشـرة ٠٠ كمـال فـي السادسة ٠٠ أما عائشة فهي لم تتعد الرابعة بعد ٠٠

اجلسوا حولي .

التف الأولاد من حوله كما أمرهم .

– هادي أرض عربية ٠٠ كل أرض يرفرف عليها علم عربي ٠٠ بتصـير أرض عربية ٠٠ أشار إلى علم فلسطين .

– علم مين هادا يا أولاد ؟

ردوا عليه بأصوات متفرقة :

– علم فلسطين .

– إنتو من أي بلد في فلسطين ؟

أجابوه هذه المرة بصوت واحد :

– من المجدل .

– المجدل بإيش مشهورة ٠٠ حبايب قلبي ؟

– مشهورة بالنسيج .

– تذكروا دايماً أنكم فلسطينية عرب .

أراد أن يسترسل ولكن زوجته تدخلت بفظاظة :

– واستراليا ألا تعني لهم شيئاً ؟

– كلا .

– فلسـطين هي الماضي ٠٠ لماذا تريـد أن تسير حيـاة الأولاد فـي الاتجـاه المعاكس ٠٠ على الأقل اترك لهم حرية اختيار الجهة التي ينتمون إليها .

رد سعيد بعصبية :

– الانتماء الوحيد المسموح والمعترف به عندي ٠٠ هو انتماؤهم لفلسطين .

– إذن أنت تنكر أمومتي لهم ٠٠ لماذا لا تعترف بالواقع ؟ أليسوا من دم مختلط ؟!

– قد يكونون من دم مختلط ولكن أستراليا ليست بحاجة لهم ٠٠ استراليا دولة حره ذات سيادة ٠٠ أما فلسطين المحتلة المغتصبة فهي بحاجة لهم ٠٠ ولكـــل شـــرفاء العالم .

صرخت بفزع :

– تريدهم وقوداً لمعركة يائسة .

احتد سعيد غيث ٠٠ صر على أسنانه :

– الزرع للزُراع ٠٠ والأرض لأهلها .

قال الدكتور علي زيدان لعبد الحميد :

– هادي مساوئ الزيجات المختلطة ٠٠ خلافات تتفاقم ٠٠ وخراب بيوت .

أراد قدري أن يخفف من حدة الموقف فأنشد بسخرية :

– الغضب الســـاطع آت

مـــن كـــل طريـــق آت

بســـــياج الرهبـــة آت

اشترك الآخرون في النشيد ٠٠ ثم انخرطوا في الضحك .

❋❋❋

جلست مي السلطان أمام صديقتها رُلى زيدان ٠٠ التي انتبذت مكاناً قصياً تحت شجرة صنوبر ضخمة ٠٠ تناولت الكتاب من يد صديقتها وقرأت العنوان ٠٠ " واحد يحلق فوق عش طائر الكوكو " .

– لقد شاهدت الفيلم كان جاك نيكلسون رائعاً .

تنهدت رُلى :

– شاهدت الفيلم أنا أيضاً ٠٠ ومن يومها ينتابني الشعور بأنني سأفعلها .

صمتت برهة ثم أكملت :

– أحلق فوق عش طائر الكوكو ٠٠ مثلما فعل بطل الرواية .

قالت ذلك واستلقت على ظهرها فوق الأعشاب اللينة .. استلقت مي إلى جوارها .. فردت ذراعيها تأملت ذوائب الأشجار الباسقة التي تنعقد فوقهما وقد تعامدت عليها أشعة الشمس .. تراقصت الظلال في قبة الفلك .. غرد طائر قريب .. اجتاحتهما نشوة عارمة .. هتفت مي :

- يا للروعة .. الآن اكتملت اللوحة .

ران الصمت برهة .

مالت مي على جانبها لتواجه رُلى :

- رأيت عمر الشحات يتابعك بنظراته .

- ربما يريد أن يعرف إن كنت قد حدثت أبي بخبره ؟

- وهل فعلت ؟!

- تريدين أن يقتله أبي .. ويقضي باقي عمره في السجن !! طبعاً لم أفعل .. ولكن أنفاسه القذرة .. العابقة برائحة السجائر .. ما زالت تنشب في حلقي .. وتدفعني إلى التقيؤ .. لم أكرهه فقط .. كرهت الرجال جميعاً وخاصة العرب منهم .. لقد كان أساتذتي على حق في ثانوية فرانكستون .. لم أكن مجرد فتاة عادية .. تنتمي لثقافة مغايرة كما توهم أبي .. كنت مريضة .. وبحاجة إلى طبيب نفسي .. وكان يمكن أن أبقى كذلك إلى الأبد .. لولا أنني قابلت فرانك .

قفزت مي كمن لدغتها أفعى .

- هكذا إذن .. بوي فرند .. كيف تعرفت عليه ؟

- زميلي في المدرسة .. ثم في الجامعة .. عزلتي كانت دائماً تستفزه .. فيتصدى لي محاولاً أن يثير اهتمامي بأي طريقة .. أمعنت في تجاهله .. تزوجت صديقتي الوحيدة .. بصعوبة بالغة سمح لي والدي أن أحضر العرس .. اختارتني العروس إشبينة لها .. تصادف أن كان هو إشبين العريس .. وحسب تقاليدهم شاركني الرقص .. وضع يده على خصري .. وطوقني بيده الأخرى .

كان أول رجل يقترب مني إلى هذا الحد ٠٠ بعد تجربتي المريرة مع السافل عمر الشحات ٠٠ اضطربت ٠٠ تشوشت أفكاري برهة ٠٠ ثم أقنعت نفسي بأن كل شئ سيكون على ما يرام ٠٠ وأن علي أن أمضي هذه الليلة ٠٠ ولا أخذل صديقتي الوحيدة ليلة عرسها ٠٠ لكنه تمادى في اقترابه مني ٠٠ وضع إحدى ذراعيه على خصري ٠٠ طوق بالأخرى كتفي ٠٠ شدني إليه ٠٠ لم يكف عن احتضاني والالتصاق بي طوال الليل ٠٠ ظل يهمس في أذني ٠٠ كانت أنفاسه تلفح رقبتي وجسدي كله ٠٠ كان صوته يجتاحني تماماً ٠٠ أردت مقاومته دون جدوى ٠٠ كانت مقاومتي تنهار شيئاً فشيئاً ٠٠ إرادتي الصلبة تلاشت تدريجياً ٠٠ عقلي أصابه الشلل ٠٠ استغل جسدي الفرصة وحصل على استقلاله ٠٠ صار يعمل وفق ناموسه الخاص ٠٠ انفجرت الغرائز التي كبحها العقل زمناً طويلاً .

تذكرت مي ما قاله لها والدها حين سمح لها بالاشتراك في الدبكة (الدبكه غير الرقص يا ابنتي ٠٠ الدبكة هي الفتوة والفرح الجماعي والتعبير الراقي عن مشاعر الحب ٠٠ أما الرقص الغربي فهو المحاضنه والالتصاق وإيقاظ الغرائز التي لا يجب إيقاظها إلا في سرير الزوجية) .

سألت مي صديقتها :

– كيف تجزمين بأن هذا هو الحب ؟

– ليكن ما يكون ٠٠ هذا ما كنت أحتاج إليه .

تأملتها رُلى ٠٠ حتى ذهب روعها .

– لن تبوحي بسري لأحد يا مي ٠٠ أليس كذلك ٠٠ أعني ليس قبل ستة أشهر من الآن ٠٠ فبعد ستة أشهر لن يعود الأمر سراً ٠٠ ستجدين صورتي على صفحات الجرائد مذبوحة من الوريد إلى الوريد

حملقت فيها مي مشدوهة ٠٠ فتابعت :

– سأتخرج بعد ستة أشهر ٠٠ سنهرب معاً لنبدأ حياتنا بعيداً عن أهلي وأهله ٠٠

أهله كاثوليك متعصبون وبالإضافة إلى ذلك فهم من المافيا ٠٠ لا يقبلون أن تدخل أجنبية في عالمهم ٠٠ عداؤهم سوف يسهل عثور أبي علي ٠٠ وعندها قولي يا رحمن يا رحيم ٠٠ أشارت إلى رقبتها .

اصفر وجه مي ٠٠ وابتعلت ريقها ٠٠ كأنها تتابع فيلماً من أفلام الرعب ٠٠ احتضنت صديقتها وفاضت عيونهما بالعبرات .

❋❋❋

واصلوا صعودهم إلى ظهر السد ٠٠ قال علي زيدان والد رُلى بثقة متناهية :

– الرك على التربية والقدوة الحسنة ٠٠ ربي أولادك كويس ٠٠ ولا تقوللي بيئة ولا مجتمع ٠٠ ولا كلام فاضي ٠٠ كون مثل أعلى في تصرفاتك ٠٠ ما بصيبك إلا مطر السلامة .

احتج قدري :

– المسألة نسبية يا دكتور ٠٠ ما تراه أنت انحلالاً وفسادا في المجتمع الغربي ٠٠ يراه غيرك انفتاحاً وتحرراً وإقبالاً على الحياة ٠٠ أتعرف ؟ أحياناً كثيرة أفكر في الأحداث [1] ٠٠ أعتقد أننا نحن المسلمون السبب في كل ما يجري علينا .

حدقوا فيه مستغربين فتابع ٠٠ المسيحيون في بلادنا أقلية ٠٠ لو أننا تزوجنا منهم ٠٠ وزوجناهم من بناتنا لذابوا خلال قرن أو قرنين ٠٠ لكننا لم نفعل ٠٠ ثم التفت إلى سعيد غيث فجأة وسأله :

– هل تقبل بتزويج ابنتك لمسيحي ؟

---

١. الأحداث : الحرب الأهلية اللبنانية ٠٠ كما يسميها اللبنانيون .

شخر سعيد غيث ولوح بسبابته في وجه قدري :

- مسلم .. ومن لبنان .. لأ .. لازم مسلم .. ومن فلسطين .

- هادا التعصب إللي على أصولو .

رد علي زيدان مفاخراً بصديقه :

- مش كل الطير إللي بتاكل لحمو يا قدري .

(١٢)

أقام النادي العربي الفلسطيني في ملبورن حفل سمر دعي إليه جميع التنظيمات ووجوه الجالية .

تبارى الخطباء على المنبر في الإشادة بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ٠٠ حتى كاد المد الثوري يجتاح أستراليا كلها ٠٠ ويجرف معه جزر المحيط الهادي واحدة بعد الأخرى .

منال عنبر غمزت النساء فتجمعن على مائدة واحدة تاركين الرجال يخوضون في مناقشاتهم التي لا تنتهي ٠٠ قام عمر الشحات إلى مائدة الرجال فانتهزت منال الفرصة وأشارت إلى زوجته :

– تعي لهنا يا زليخه ٠٠ ما بتحلا من غيرك .

قامت زوجة عمر الشحات تخب في براقعها وعباءاتها لتلحق بالنساء ٠٠ سنت منال عنبر أسنانها لتفترسها دون رحمة :

– اقعدي حدي ٠٠ هنا ٠٠ والله حبيبة قلبي إنت .

ربتت على أكتافها ٠٠ قعدت حيث أشارت لها ٠٠ وقبل أن تطمئن في جلستها ٠٠ فاجأتها منال :

– سمعنا عمر بدو يتجوز عليكي ؟

تنهدت زليخه ٠٠ فتماوج جسدها الضخم مع التنهيدة البائسة :

– الشرع بعطيه الحق في أربعة .

صاحت منال بفزع :

– يعني صحيح ابن الحرام بدو يعملها ٠٠ والله أنا ضربتها عمياني .

ثم تابعت بلؤم :

– ليكون انت مقصرة في حقو ؟

تلفتت زليخه حولها لتتأكد أنه بعيد ولا يسمع الحديث ٠٠ وانبرت تدفع عن نفسها التهمه :

– الله العالم يا أم صخر ٠٠ ما بخلي عن جهدي جهد .

– معناتو جوزك عينو فارغة .

– منو لله .

– ولك شو منو لله ٠٠ أي والله لو أبوصخر يعملها لأطبــق إيدي على زمارة رقبتو ٠٠ وما أفكها إلا بعد ما روحو تطلع .

أجهشت زليخه بالبكاء فكفوا عنها .

كشر علي زيدان عن أنياب ثقافته الواسعة ٠٠ انقض على قدري الذي بدا في أسعد حالاته وهو يستمع لذلك الفيض من الخطب الماركسية اللينية :

– هكذا إذن ٠٠ أنتم أيها الماركسيون الحمقى ٠٠ ومعكم الثوريون ٠٠ وأنصاف الثوريين ٠٠ ومثقفي المقاهي ٠٠ وحثالات الأرصفة ٠٠ مشيتم وراء الطغم الفاسدة التي ارتدت مسوح الثورة ٠٠ وبلغت من الأمة ما لم يبلغه أشد أعدائها ٠٠ لمعتم في عيون العامة والدهماء كما تلمع الوحول ٠٠ أدخلتمونا زمن الكوارث والهزائم . بررتم الخيانة ٠٠ وزينتم الجريمة ٠٠ ووجدتم الذرائع لكل مستبد ٠٠ ظالم ٠٠ كنتم أبواقاً وطبولاً ومنافيخ تنفخ دمى السلطة حتى تعظم في عيون الناس ٠٠ والأمة تزداد جهلاً وتخلفاً ٠٠ وباسم الاشتراكية لم يعد العربي في وطنه آمناً على ماله أو عرضه أو دمه ٠٠ هربنا منكم إلى أقصى الأرض ٠٠ وها أنتــم تلحقون بنا ٠٠ لقد أفسدتم كل شئ هناك ٠٠ وتريدون إفساد كل شئ هنا .

قال قدري :

– موتو بغيظكم ٠٠ عقارب الساعة لا تدور إلى الوراء ٠٠ الزمن كفيل بدفنكم في مزابل التاريخ ٠٠ أيها القوميون الحمقى ٠٠ والمتدينون المتخلفون ٠٠ في النهاية ٠٠ النصر لديكتاتورية البروليتاريا .

سعيد غيث انتحى جانباً ٠٠ ولم يشارك في الحديث .

سأله عبد الحميد ممازحاً :

– لماذا لا تشد أزرنا في حربنا مع هذا الماركسي المتغطرس .

قال سعيد غيث :

– البال مش رايق يا سلطان .

– خير ؟

– زوجتي أخذت الأولاد دون إذني لقضاء الكريسماس ٠٠ عند أهلها في كوينزلاند

– وهل يضيرك ذلك إلى هذا الحد ؟

– طبعاً يضيرني ٠٠ الأولاد سوف ينخرطون في الهرطقة ٠٠ اختيار شجرة الكريسماس ٠٠ تزيينها ووضع الهدايا تحتها ٠٠ وانتظار السانتاكلوز[1] ٠٠ وشيئاً فشيئاً سيصابون بالفصام ٠٠ ثم ينسلخون تدريجياً عن ثقافتنا وديننا وقوميتنا ٠٠ وقضيتنا التي منحناها أعمارنا .

قال قدري :

– خلصت تخطب ٠٠ المصيبة إنكو يا فلسطينية ٠٠ مسيسين أكثر من اللازم .

---

١. سانتاكلوزا : بابا نويل (القديس الذي يوزع الهدايا على الأطفال في أعياد الميلاد ٠٠ وهي شخصية وهمية) .

سأل عبد الحميد :

– كيف يعني أكثر من اللازم ؟

تابع قدري :

– أنا ماركسي ٠٠ وبفهم إنو يكون لشعب قضية يؤمن بها ويدافع عنها ٠٠ ولكن أنتم لم تعودوا شعباً له قضية ٠٠ لقد صرتم قضية لها شعب ٠٠ لماذا لا تعيشون حياتكم ٠٠ وتنعموا بخيرات هذا البلد مثل باقي الجاليات ٠٠ وتشاركوهم في بناء وطنكم الجديد .

شخر سعيد غيث ٠٠ وقال بفزع :

– تريد أن ننسى عروبتنا ونصبح أستراليين ٠٠ نستسلم لكل السفالات التي يعج بها وطننا الجديد .

صفق له قدري ٠٠ ووقف يشوح بيده وهو يدبك ساخراً :

– تحيا الأمة العربية ٠٠ تحيا الأمة العربية .

قال عبد الحميد :

– الدودة في أصل الشجرة .

همس قدري :

– ماذا تعني يا سلطان ٠٠ فسر كلامك .

– أعني أننا لا نستطيع إلقاء اللوم على الأستراليين ٠٠ نحن أيضاً لدينا استعداد غريـــزي للانحدار ٠٠ وفي الحديث الشريف " لتتبعن سنن من قبلكم ٠٠ شبراً بشبر ٠٠ وذراعاً بذراع ٠٠ ولو دخلوا جحر ضب لدخلتم وراءهم ٠٠ قال الصحابة ٠٠ اليهود والنصارى يا رسول الله ؟؟ قال ومن إذن ؟! "

قاطعه عمر الشحات :

- اسمع يا سيد عبد الحميد ٠٠ أنت جديد هنا ولذلك فأنت تفلسف الأمور ٠٠ وتبحث عن الحلول الوسط ٠٠ باختصار أنت لا تعرف شيئاً بعد ٠٠ عن الحفرة الملعونة ٠٠ التي نقف جميعاً على شفيرها .

- أية حفرة ؟!

- حفرة الضياع ٠٠

حملق عبد الحميد في محدثه الذي تابع بحماس :

- كل شئ حولك يحرض أبناءك عليك ٠٠ والعرب هنا ٠٠ يقاومون لبعض الوقت عوامل التعرية إلا أن الريح تواصل نخرها في أجسادهم ٠٠ شيئاً فشيئاً تضعف مقاومتهم ٠٠ ويستسلمون .

هجم قدري :

- التعصب العرقي مثل التعصب الديني كلاهما آفة ٠٠

التفت إليه عمر الشحات ٠٠ وهز سبابته في وجهه :

- ماذا تريدون منا ؟

تابع قدري :

- بدنا تلينو عقولكم إللي صارت مثل الصخر ٠٠ يا أخي إللي بروح بلاد العوران بعور عينو .

نظر إلى عمر الشحات وتابع بفظاظة :

- إنت ليش هاجرت على أستراليا ٠٠ إذا أنت مسلم فلا يجوز أن تعيش في بلاد الكفار ٠٠ ألم تسمع بالحديث الذي يقول : " الذين يقيمون بين ظهراني الكفار في غير تجارة أو طلب علم ٠٠ أنا برئ منهم إلى يوم القيامة " .

قال عبد الحميد مازحاً :

- جاء لنشر الإسلام ٠٠ وأسس الجمعية الإسلامية والمدرسة الإسلامية ٠٠ إيش فيك يا قدري .

أطلق قدري عقيرته بالغناء وهو يتمايل ويطرقع بأصابعه :

- دق الشـــحات على بـــاب الـــدار

قالتلـــو الحلـــــوة علـــى الله

قاللهـــا والله مـــانـــي شـــــحات

أعطيني بوســـــه دخيـــل الله

ثم وجه حديثه لعبد الحميد :

- والله ما إنت عارف شي ٠٠ إنت على نياتك يا عبد الحميد ٠٠ بدك طالع لك ملفو لهالمنظوم ؟!

أشار إلى الشحات .

تناول عبد الحميد سيخاً من طبق اللحم المشوي الذي وضعوه أمامهم :

- ما بدي إياك تطالع ملف هالمنظوم ٠٠ ولا أي منظوم آخر .

تابع قدري بحماس :

- خللينا في الملف الأهم ٠٠ إحنا لازم نعترف بأنا صـــرنا أسترال من أصل عربي ٠٠ أو عرب نحمل الجنسية الأسترالية ٠٠ يعني عرب أسترال ٠٠ الشجرة مش بس الجذور ٠٠ الشجرة الجذور ٠٠ والساق ٠٠ والفروع ٠٠ والأوراق ٠٠ صحيح إحنا جذورنا في الوطن ٠٠ لكـــن فروعنا يعني أولادنا ٠٠ بعيشوا وبتعلموا ٠٠ وبكبروا ٠٠ وبشتغلوا ٠٠ وبحققوا ذاتهم ٠٠ هنا في أستراليا ٠٠ إللي الله قدر إنها تكون وطنهم .

قاطعه سعيد غيث :

- صرت تحكي مثل مرتي ٠٠ كويس إللي مرتي مش هنا ٠٠ كان شاشت معاها .

ضحكوا ٠٠ انصرفوا لمتابعة حفلة السمر ٠٠ كانت الحفلة قد بدأت والشباب يدبكون على صوت سميرة توفيق :

- بالله تصبـــوا هالقهـــوة وزيدوهـــا هيـــــل
واســـقوها للنشـــامـــى عاظهـــور الخيـــل

تابع عبد الحميد الدبكة ٠٠ ليرى إن كان أولاده يشاركون فيها ٠٠ وجدهم جميعاً يدبكون ويهزجون ٠٠ هز رأسه وقد سر خاطره .

فجأة فكت ملك طوق الدبيكة ٠٠ كانت تلبس تنوره قصيرة جداً ٠٠ تكشف عن ساقين ممتلئتين ٠٠ وفخذين مستديرين شهيين ٠٠ صدرها الممتلئ الريان يثقل على خصرها الرقيق المرهف .

توسطت حلقة الدبكة ورقصت وحدها ٠٠ توقف الدبيكة ٠٠ فكوا أيديهم المتشابكة ليصفقوا لها على الواحدة ونص .

رقصت وأبدعت قام كثيرون عن موائدهم وتحلقوا حول طوق الدبكه لمتابعة الفتاة ٠٠ البعض وقف فوق الكراسي .

الفرقة الموسيقية أسعفتها بمعزوفة الهوانم لمحمد عبد الوهاب ٠٠ التقط جسدها بسرعة إيقاعات اللحن وفعلت كيمياء الجسد فعلها ٠٠ فتلوت مثل أفعى فاجأتها الرمضاء .

تابع عبد الحميد ملك ٠٠ حتى أنهت رقصتها وعادت أدراجها ٠٠ لتجلس على مائدة عمهـــا داني مالك ٠٠ غمغم شعراً لكعب بن زهير :

- هيفـــاء مقبلـــة ٠٠ عجـــزاء مدبـــرة
لا يُشتكي قصـــر منهـــا ولا طـــول

صبحي المزين (أبوجيمي) انتحى بمستمعيه جانباً :

- الوالد الله يرحمو كان عندو أكبر صالون حلاقة في بيروت ٠٠ الفرنساوية الكبار ما كانوا يحلقوا إلا عندو ٠٠ بقى لما بشارة الخوري وجماعتو أبطال الاستقلال انحبســـو في قلعة راشيا ٠٠ بعتولهم حلاق الســـجن فخامـــة الرئيس قال للفرنسيين " فشرتو ٠٠ والله ما بمس شعره من شعر راســـي إلا أبو صبحي " ٠٠

رياض الصلح والمير مجيد اتضمانوا مع فخامة الرئيس ٠٠ الفرنساوية خضعوا وطللعوا بيي عالقلعة حلق للزعما كلياتهن ٠٠ لمن رجع إمي سألتو :

– سلمت الحجاب لدولة الرئيس ؟

– إيه سلمتو ٠٠ لرياض بيك في إيدو .

– بكره الفرنساويه بطالعوهن .

وكان بها ٠٠ الفرنساوية طلعوهم من السجن ٠٠ واعترفوا باستقلال لبنان ٠٠ الوالدة الله يرحمها كانت مبروكة ٠٠ وناس كثير كانوا بعتقدوا فيها ٠٠ الله يرحمك يا رياض الصلح آخر مره شفتو عنا بالبيت ٠٠ كان مروح من صلاة الجمعة ٠٠ شرب قهوتو ٠٠ وقلب الفنجان على الصحن ٠٠ وأعطاه لأمي .

– شوفي يا أم صبحي ٠٠ شو خبالي بهالدنيا .

أمي بحلقت في الفنجان ٠٠ ولا من تمها ولا من كمها[1] ٠٠ رياض بيك فزع ٠٠ شلح طربوشو وحطوا على الطاولة ٠٠ وطالع المنديل من جيب الجاكيته ٠٠ وصار يمسح عرقو :

– شو فيكي يا أم صبحي ٠٠ إصفر وشك ٠٠ وانقطع نفسك .

إمي خنقها البكا ٠٠ هربت على أودتها وسكرت على حالها ٠٠ وما عدنا نسمع منها غير " حوينتك يا رياض " .

بعد أسبوع كتبت الجرايد براس الصفحة ٠٠ " مصرع رياض الصلح في عمان " وصارت العالم تبكي بالشوارع .

١.لا من تمها ولا من كمها : لم تنطق .

(١٣)

لم تصمد أشجار الفاكهة التي زرعها عبد الحميد حول منزله ٠٠ ظلت عليلة مصفرة الأوراق ردحاً من الزمن ٠٠ إلى أن حل الشتاء ٠٠ ولم تقم لها بعد ذلك قائمة ٠٠ تساقطت الأوراق ٠٠ وتعرت الغصون ٠٠ ثم ما لبث الجفاف أن سرى فيها سريان النار في الهشيم .

حاول عبد الحميد بخبرته الطويلة في الزراعة أن يداوي أشجاره ٠٠ فتعهدها بالتعشيب المستمر والأسمدة ٠٠ والأدوية ٠٠ ورشها بالمبيدات ولكن ذلك ذهب أدراج الرياح .

أخيراً قرر الاستعانة بخبير استرالي من أحد المشاتل .

حضر الخبير ٠٠ وحملق مشدوهاً :

– أحواض ٠٠ أنت أيها السيد ٠٠ جعلت لكل شجرة حوضاً منخفضاً عن سطح الأرض ٠٠ وحفرت قنوات لتغذي هذه الأحواض ٠٠ ثم أردت أن تأكل من ثمر أشجارك ٠٠ لقد قتلتها مع سبق الإصرار والترصد .

– كيف ؟

– هذه الأحواض !!

– هذه الأحواض ضرورية لجلب مياه الري وإلا ٠٠

– هذا الكلام لا ينطبق على ولاية فكتوريا ٠٠ ربما ينطبق على بلاد أخرى ٠٠ من أين أتيت أيها السيد ؟

– من فلسطين .

– هل تمطر عندكم طول العام ؟

- كلا ٠٠ تمطر شهرين أو ثلاثة في السنة .

- ألم تلاحظ أن فكتوريا ممطرة طوال العام ٠٠ وأن كثرة الماء ٠٠ تقتل الشجر مثل قلته تماماً .

كان عليك أن تستبدل هذه الأحواض بأهرامات صغيرة في عرق كل شجرة حتى تبعد عنها الماء .

قصف الرجل فرع شجرة وكسره في راحة يده .

- يجب تحطيب هذا الشجر وإعادة الأرض إلى ما كانت عليه ٠٠ والبدء من جديد

توجه الرجل العجوز إلى حيث يقف عبد الحميد :

- أيها السيد القادم حديثاً ٠٠ لكل أرض تربتها وطقسها ٠٠ ومواسمها ٠٠ والذي يغترب في بلاد ولا يأخذ أهبته ليتعايش مع ظروفها يحكم على نفسه بالخسارة ٠٠ إليك هذه النصيحة من رجل عجوز خبر الدنيا :

- الطبيعة لا تغير نواميسها من أجل إنسان ٠٠ أو طائر ٠٠ أو شجرة ٠٠ لذلك فإن على الكائنات الحية أن تتغير ٠٠ إذا أرادت الثبات والنبات .

حمل رفشه على كتفه ومضى ٠٠ تاركاً عبد الحميد يفكر عميقاً فيما سمع .

دخل أولاده الصالة وهم يتراطنون الإنجليزية بلهجة أسترالية خالصة .

تنبه عبد الحميد أنه لم يسمعهم يتحدثون العربية منذ شهور طويلة ٠٠ طالما نهرهم في أول الأمر ٠٠ احتجت زوجته عليهم ما وسعها ذلك ٠٠ يبدو الآن أنه وزوجته رضخا للأمر الواقع ٠٠ فاللغة الإنجليزية مسعفة أكثر للأولاد ٠٠ خاصة وهي تجري على ألسنتهم في المدرسة والنادي والشارع وهي تلاحقهم بلا هوادة في السينما والتلفاز والمذياع .

قال عبد الحميد في سره ٠٠ لن تصمد اللغة العربية هنا بأكثر مما صمدت أشجار حديقتنا ٠٠ المسكينة ذبلت وتساقطت أوراقها ٠٠ وماتت الواحدة بعد الأخرى ٠٠ ومنظرها الآن مروع كمنظر انتحار جماعي .

تذكـــر ما قاله له عمـــر الشحات (العرب هنا يقاومون لبعض الوقت عوامل التعرية ٠٠ إلا أن الريح تواصل نخرها في أجسادهم ٠٠ ثم لا تلبث أن تضعف مقاومتهم ٠٠ ويستسلمون لقدرهم) .

همس عبد الحميد لزوجته :

– كان إحساسي بالغربة فظيعاً عندما وصلت هذه البلاد ٠٠ تمترست داخل مزرعتي وحولتها إلى قلعة حصينة ٠٠ لغتها عربية وزوارها عرب ٠٠ حشدت داخلها جرائد ومجلات وأفلاماً ومسلسلات باللغة العربية ٠٠ وفي ذهني أن نظل عرباً حتى في المغترب ٠٠ فاللغـــة هي ما يربطنا بالوطن الأم ٠٠ وبدونها نضيع نحن ٠٠ ويضيع الوطن ٠٠ لم أستطع حبس الأولاد داخل المزرعة ٠٠ فلابد أن يذهبـــوا إلى المدارس والجامعـــات ٠٠ وأن يتماســـوا مع العالم الخارجـــي ٠٠ ولم أستطع منع المزارع والخادمة من التحدث مع الأولاد حتى صاروا موضع سرهم ٠٠ ها هم يتراطنون داخل بيتي طـــوال الوقت بالإنجليزية ٠٠ إن رطانتهم تصك أذني ٠٠ المصيبة أن اللغة ليست وسيلة للتعبير فقط ٠٠ اللغة طريقة للتفكير أيضاً .

قالت زوجته :

– أنت تهول الأمر كثيراً .

تابع عبد الحميد كأنه يحدث نفسه :

– بدأ الخلاف بيننا وبينهم على نوع الملابس التي يرتدونها والحد الأدنى من الحشمة الواجب توفره في تلك الملابس ٠٠ ثم انتقل الخلاف إلى الموسيقى والأغاني ٠٠ ثم وصل إلى ألوان الطعام .

حلت الوجبات السريعة مكان طعامنا الشهي ٠٠ واستفحل الأمر حين بدأوا يعيدون النظر في كل الموروث ٠٠ العادات ٠٠ التقاليد ٠٠ القيم ٠٠ المبادئ .

تنهد عبد الحميد وهو يعترف لنفسه :

– كنت أحس بالغربة في الخارج ٠٠ وأنا بين الأسترال ٠٠ الآن تمضي الساعات ولا أتبادل مع أولادي الحديث ٠٠ انتهى بي الأمر أن أصبح غريباً في بيتي ٠٠ غريباً عن أولادي ؟!

صاح مقهوراً :

– ما عاد أولادنا يشبهوننا على الإطلاق .

دخلت الخادمة تحمل صينية عليها فناجين القهوة التركية ٠٠ دخل الأولاد معها ٠٠ جلسوا حول عبد الحميد .

تناول عبد الحميد فنجانه بلهفة ٠٠ أما الأولاد فأشاروا لها بأيديهم إشارة الرفض .

قال عبد الحميد :

– لا أحد يشرب القهوة التركية في هذا البيت سوانا يا ثريا .

أشار للخادمة :

– هؤلاء زبائن الشوكولا ٠٠ الكابتشينو ٠٠ الكافي لاتيه .

انحنت زوجته على صينية القهوة ٠٠ غطت الفناجين الزائدة ٠٠ تناولت فنجانها ٠٠ رشفت رشفة كبيرة ٠٠ وتنهدت :

– زوجة سعيد غيث كانت تنتحب على التليفون ٠٠ الأمور وصلت بينهما إلى حد القطيعة ٠٠ المرأة تفكر في طلب الطلاق .

– خسارة ٠٠ أي مصير سيواجه أطفالهما ؟

خيل لعبد الحميد أنه سمع إطلاق رصاص من ناحية الجبل ٠٠ فصَّر على أسنانه وتمتم (يجب أن أضع نهاية لهذا الكابوس) .

– تقول زوجة سعيد غيث إن المشكلة الجديدة بدأت حين أخبرتهم عائشة٠٠أن الآنسة في الحضانة علمتهم لعبة حلوة٠٠سألها سعيد عن اللعبة الحلوة فشرحت له :

الآنسة طلبت من الأولاد الركض في الساحة ومن البنات اللحاق بهم ٠٠ وكل بنت تمسك ولد تبوسو ٠٠ حملق سعيد مشدوهاً ٠٠ ولكن البنت أكملت بعفوية ٠٠ بعدين الآنسة طلبت من البنات الركض في الساحة ومن الأولاد اللحاق بهن ٠٠ وكل ولد يمسك بنت يبوسها ٠٠ جن جنون صاحبك وأخذ يشرح لابنته التي لم تبلغ الخامسة من عمرها ٠٠ كيف أن هذا حرام ٠٠ وعيب ٠٠ ولا يليق بها أن تفعل ذلـــك ٠٠ كونها عربية مسلمة ساق لها كل الحجج والبراهين حتى ظن أن البنت اقتنعت ٠٠ سكتت البنت وكادت العاصفة تمر بسلام ٠٠ لولا أنها عادت لتهمس في أذن سعيد والدموع في عينيها :

– لكن يا بابا أن باحب هادي اللعبة كتير ٠٠ جن جنون صاحبك وأقسم أن لا يدعها تذهب إلى الحضانة ٠٠ طلب من أمها أن تترك عملها وتجلس معها في البيت ٠٠ ثم طفح الكيل عندما طلب من ابنته الكبرى سارة أن ترتدي الحجاب ابتداء من اليوم التالي ٠٠ إذا كانت تريد مواصلة تعليمها ٠٠ ثارت ثائرة ليز واتهمته بالتخلف والجهل ٠٠ قررت مغادرة البيت ومعها الأطفال ٠٠ لكي تنقذهم من المصير الأسود الذي ينتظرهم ٠٠ منعها صاحبك وضربها ٠٠ استدعت له الشرطة وهو الآن في السجن .

شرق عبد الحميد بقهوته ٠٠ وضع الفنجان على المنضدة وتنهد بأسى :

– اللهم لا نسألك رد القضاء ولكن اللطف فيه .

تناول سماعة الهاتف ٠٠ اتصل بمحاميه ليذهب إلى ياكدندا ٠٠ يخرج سعيد من سجنه ٠٠ ويدفع له الكفالة مهما بلغت .

(١٤)

واصلت ملك عملها في مكتب السلطان ٠٠ بذلت جهداً كبيراً في القيام بواجباتها ٠٠ كانت موظفة مثالية ٠٠ أدت عمل موظفتين في وقت واحد ٠٠ وحصلت على ثقة الجميع واحترامهم ٠٠

عبد الحميد كاد أن ينسى السابقة التي طردت لأجلها من بيت أبويها ٠٠ جهد السلطان في وضع مسافة كافية بينه وبينها حتى لا ينجرف وراء مشاعر لا تليق بسنه أو مكانته ٠٠ منتظراً منها تقديم استقالتها ٠٠ على اعتبار أن عملاء المخابرات لا يثبتون في وظيفة واحدة ٠٠ بل يتنقلون حسب الحاجة إلى خدماتهم ٠٠ ولكن ملك دقت أطنابها كما لو أنها باقية إلى الأبد .

الأستراليات في المكتب استشعرن خطر وجودها بينهن ٠٠ تجيد العربية قراءة وكتابة مما أهلها للإشراف على علاقة المكتب بزبائنه العرب ٠٠ والفوز بصحبة السلطان في اجتماعات العمل مع الأسترال للقيام بترجمة ما يصعب عليه ٠٠ حاولن الكيد لها والتآمر عليها واحدة بعد الأخرى ٠٠ حتى خسرن السباق وأخلين مواقعهن لها .

لم يعد في المكتب سواها غير المسئولة عن الحسابات ومدير التصدير الإنجليزي الأصل ٠٠ أبو جيمي كان يتردد على المكتب بحجة الاطمئنان على السلطان أعز أصدقائه ٠٠ ثم ينتحل الأعذار بعد ذلك ليستدين من عبد الحميد ٠٠ مبالغ صغيرة في أول الأمر ٠٠ ازدادت الفاتورة بازدياد سباقات الخيل وسباقات الكلاب التي يراهن عليها أبو جيمي وتستنفذ دخله من راتب التقاعد ومن المكوس التي يفرضها على أولاده ٠٠ وما يستطيع اقتراضه من أصدقائه الذين يدفعون وهم على ثقة بأنه لن يرد لهم شيئاً .

دأب السلطان على نصحه :

– يا أبو جيمي ما بدك تبطل المراهنات والقمار .

– كيف أبطل وما ضايل عليَّ إلا برمة صغيرة .. لو برم الدولاب .. بطالع كل المصاري يا للي خسرتها في حياتي .. برمة صغيرة .

أخيراً علمت ملك بالسبب الحقيقي لزياراته .. فعنفته وطردته شر طرده .

– لا تتركهم يستغلوا طيبة قلبك .. يا أستاذ .. ثم أردفت بصوت يشبه الهمس :

– قلبك اللي مليان حنان وحب وإنسانية .

أثلج ذلك صدر السلطان ونغمش مشاعره القديمة تجاه الفتاة .. العلاقة في ظاهرها كانت بريئة جداً .. وفي حقيقتها ظللت تراوح بين البراءة والرغبة الدفينة .. التي لم يتم التعبير عنها لا بالكلمات .. ولا باللمسات .. وكثيراً ما فكر عبد الحميد في موضوع علاقته بالفتاة .. واستجابته الفورية لطلباتها .. واستسلامه للمصير الذي تقوده إليه .. فلا يزيد على أن يهمس لنفسه :

(جدي بلعب في عقل تيس) .

لم يكن عبد الحميد يعرف أن السياسة ستلعب دوراً كبيراً في تطوير العلاقة بينه وبين سكرتيرته اللعوب .. لكن ما قدر كان .. سقطت حكومة الأحرار في أستراليا .. صعدت حكومة العمال .. تبنى العمال سياسات مغايرة لسياسات الأحرار .. فيما يتعلق بالتجارة الخارجية .

انحسرت المعونات التي كانت تقدمها الحكومة لمصدري اللحوم .. تركوهم مكشوفين أمام المنافسة التي استعرت في الأسواق الخارجية .. في نفس الوقت كانت السوق الأوروبية المشتركة تجزل المعونة لمصدري اللحوم على مستوى أوروبا كلها .

انسحب البساط تدريجياً في أسواق الشرق الأوسط من تحت أقدام المصدرين الأسترال

لم يعد مكتب عبد الحميد في ملبورن يعج بتجار اللحوم المجمدة والمبردة كما كان الأمر في العامين الماضيين ٠٠ لم يمر وقت طويل ٠٠
حتى عجز المكتب عن تغطية نفقاته ٠٠ اضطر عبد الحميد لفصل موظفي مكتبه الواحد بعد الآخر ٠٠ حتى لم يبق سواها ٠٠ كثير من مصدري اللحوم أغلقوا مكاتبهم ٠٠ انصرفوا إلى أعمال أكثر مردودية ٠٠ عبد الحميد ظل يعتقد أن السوق لا يثبت على حال وأن اللحوم الأسترالية سوف تتصدر السوق من جديد .

عكف عبد الحميد على تأليف كتيب دعاية للحوم الأسترالية ٠٠ يؤكد فيها للمستهلك أن القارة الأسترالية هي القارة الوحيدة الخالية من أمراض الماشية ٠٠ وأن ماشيتها هي الوحيدة التي ترعى العشب الطبيعي ٠٠ دون أية إضافات كيماوية أو عضوية أو بروتينات ٠٠ وأن هذا يجعل اللحوم الأسترالية صحية أكثر ٠٠ إضافة إلى طعمها الطبيعي ٠٠ ونكهتها وطراوتها ٠٠ كاد أن يكتب في ذلك شعراً إلا أن القريحة لم تكن مواتية .

تم توزيع الكتيب على العملاء ٠٠ أصحاب الثلاجات ومراكز التسويق في الشرق الأوسط ودول الخليج ٠٠ لكن ذلك لم يبدل شيئاً من تحول السوق عن اللحوم الأسترالية ٠٠ فهؤلاء الذين وزع عليهم الكتيب يقيسون الأمور بمقدار أرباحهم ٠٠ وليس بمقدار المنفعة التي تعود على المستهلك ٠٠ عبد الحميد لا يستطيع أن يعطي كل مستهلك كتيباً في يده ٠٠ مخاطبة المستهلكين عبر شاشات التلفزيون مكلفة .

اتصل بهيئة المواشي واللحوم الأسترالية ٠٠ عرض عليهم تبني الفكرة ٠٠ أخبروه أنهم بصدد معالجة الموقف الجديد ٠٠ وأنهم يعدون آلاف النشرات واللوحات الإيضاحية ٠٠ والروزنامات ٠٠ وأنهم سيدرسون مسألة الدعاية في التلفزيون .

انحسار الأشغال في المكتب أعطى وقتاً أطول للمسامرة ٠٠ برعت ملك في ملء الفراغ الجديد بقصصها عن صديقاتها ٠٠ وعن الأفلام الخلاعية التي تشاهدها ٠٠ والأغاني التي تستمع إليها وطعامها المفضل ٠٠ كثيراً ما دعت عبد الحميد لأحد المطاعم الصينية ٠٠ كانا ينزلان سوياً فتنتهز فرصة ازدحام المصعد لتلقي بصدرها العارم في أحضانه ٠٠ أو تطعن حقويه بمؤخرتها النافرة .

أخيراً قررت مراودته عن نفسه ٠٠ كان يوماً من أيام الصيف الحارة ٠٠ برر لها أن تتخفف من معظم ثيابها ٠٠ ولم يعد يستر جسدها سوى ثوب شبيه بقميص النوم ٠٠ قصير إلى منتصف الفخذ ٠٠ معلق في أكتافها بحمالات صغيرة لا تكاد تستر شيئاً ٠٠ دخل المكتب وأغلق الباب فهبت نحوه ٠٠ طوقت عنقه بذراعيها ٠٠ والتصقت به ٠٠ أصابه الدوار ٠٠ تنشق رائحتها ٠٠ أحس ليونة الجسد اليافع ٠٠ لم يستسلم ٠٠ فك ذراعيها عن رقبته ٠٠ اتجه إلى المكتب .

هتفت بضيق :

– لماذا تتجنبني ٠٠ هل أنا منفرة إلى هذا الحد ؟

– كلا ٠٠ أنت جميلة وجذابة ٠٠ ولكنني لا أطيق الدنس .

– لجسدك عليك حق .

– الجسد وعاء الروح ٠٠ كيف يبقى الشراب نظيفاً إذا سكبناه في أوعية قذرة ؟!

❋❋❋

حين عاد عبد الحميد إلى منزله كانت الهواجس تلعب برأسه ٠٠ بعيداً في مكان لا يكاد يرى في أعماق روحه ٠٠ كان يحس كم هو هش ٠٠ وضعيف ٠٠ وقابل للتصدع ٠٠ لقد قاومها هذه المرة ٠٠ ربما يقاومها مرة ثانية ٠٠ أو ثالثة ٠٠ ثم ماذا ؟؟

طوال الطريق إلى البيت كانت أنفاسها ما تزال تلهب عنقه ٠٠ وعيناها المتوسلتان ترجان كيانه رجاً ٠٠ بدأ السوس ينخر عظامه ٠٠

الفتاة جميلة ولينة ودافئة ٠٠ فإلى متى سوف يصمد أمام سطوة شبابها المتمرد .

أحس بحاجته إلى المدد ٠٠ سأل زوجته عن مي قالت له :

– مي تعد أطروحة للجامعة في غرفتها ٠٠ تنحنح ودخل غرفة مي ٠٠ عانقته ابنته :

– جئت في وقتك .

قرأت له جانباً مما كتبته ٠٠ لاحظ عبد الحميد أن مي ما زالت تكتب أطروحاتها بالعربية ٠٠ ثم تعمد إلى ترجمة ما تكتب ٠٠ بعكس أخويها اللذان يفضلان الكتابة بالإنجليزية مباشرة .

كان عنوان الأطروحة (المرأة بين الاستبعاد ٠٠ والاستعباد) .

ضحك عبد الحميد :

– كيف تترجمين العنوان ٠٠ دون أن يفقد جزالته ؟

ردت بثقة :

– حين نكتب شيئاً علمياً ٠٠ تقل أهمية الجزالة ٠٠ يصبح الأكثر أهمية نقل الفكرة (سلامة المقدمات ٠٠ سلامة التحليل ٠٠ وسلامة النتائج) .

واصلت مي القراءة :

– إذا كانت المرأة المتعلمة في العالم الثالث ما زالت مستبعدة عن مراكز صنع القرار ٠٠ مهما بلغت من العلم ٠٠ وإذا كانت المرأة التي لم تنل قسطاً كبيراً من التعليم ما زالت مهمشة ٠٠ فإن المرأة الجاهلة وهي الغالبية العظمى من النساء في العالم الثالث ٠٠ مستلبة ٠٠ أو منسية في أحسن الظروف ٠٠ رغم قيامها بكامل العبء في الحقل والمصنع والبيت ٠٠ لكن حالها في نظري أحسن كثيراً من حال المرأة الغربيـــة ٠٠ فما زال الكثيـــر أمامهـــا لتتعلمه ٠٠ والكثير لتعمله ٠٠ ومـــازال أمامهـــا الأمل مفتوحاً على مصراعيه لتحقق بعض أو كل طموحاتها ٠٠

وليس هذا هو حال المرأة الغربية التي وصلت إلى نهاية الطريق المسدود ٠٠ فالذي تم تحريره في الغرب هو جسد المرأة الغربية فقط ٠٠ إن الحرية التي منحت لها هي حريتها في اختيار رفيق الفراش ٠٠ فالغرب يتعامل مع جسد المرأة ولا يتعامل مع عقلها وفكرها ٠٠ لذلك فإن المال والمجد والشهرة من نصيب الممثلة والمطربة ٠٠ وعارضة الأزياء ٠٠ وفتاة الغلاف ٠٠ ولاعبة التنس٠٠ وليس للعالمة ٠٠ والطبيبة والمهندسة ٠٠ والأم المثالية ٠٠ الأخلاق ليست مهمة لأنه لا يمكن إبرازها خلال شاشات التلفزيون ٠٠ الأسهل هو إبراز الجاذبية الجنسية ٠٠ واستغلال هذه الجاذبية في تحويل المرأة إلى سلعة ٠٠ أو وسيلة لترويج سلعة أخرى ٠٠ " امرأة عارية أو شبه عارية تقف إلى جانب سيارة فارهه دعاية لعجلات السيارة ٠٠ وامرأة أخرى أكثر عرياً من الأولى لدعاية الكولا ٠٠ وثالثة تعري صدراً عارماً لدعاية حليب الأطفال " ٠٠ هذا على السطح وفي الواجهات وعلى مرآى ومسمع ومباركة الجميع ٠٠ هذا في العلن .

أما في السر وتحت السطح فإن الذي يجري للمرأة أدهى وأمر ٠٠ في البيت خلال طفولتها تواجه تعسف زوجة أو عشيقة الأب أو عشيق أو زوج الأم ٠٠ فإذا تـــزوجت واجهت قهر الـــزوج واستبداده ٠٠ أما في العمل فهي تواجه هيمنة رئيسها ٠٠ والتحرش الجنسي من رئيسها ٠٠ أو من زملائها في العمل ٠٠ والذي يبعث على الدهشة أن المرأة الغربية التي تعمل ٠٠ تعود من عملها متعبة لكي تجد أعمال البيت في انتظارها ونادراً ما تحظى بمساعدة الزوج .

ولو تجاوزنا المرأة العاملة الشريفة ومعاناتها ٠٠ إلى المرأة التي لم تجد فرصتها إلا في البارات والنوادي الليلية والبيوت المشبوهة ٠٠ فالأمر غاية في الرعب ٠٠ في كل هذه الأماكن يجري استغلال المرأة واسترقاقها بتواطئ من رجال القانون والشرطة والكنيسة .

قاطعها عبد الحميد :

- من أين تأتين بكـــل هذه الثقة في وجهة نظرك ٠٠ إن هذا الموضوع شائك ومعقد ٠٠ وتبدين مطمئنة إلى موقفك منه ٠٠ ألا تشعرين بالقلق ٠٠ يقولون إن الإنسان كلما زادت ثقافته كلما نقصت قدرته على الجزم ٠٠ ينظر للأمور من زوايا متعددة ٠٠ ومن أبعاد مختلفة ٠٠ ويقع في الحيرة والبلبال .

فاجأها السؤال ٠٠ فأغضت باسمة ٠٠ ثم قالت بدلال :

- لماذا تباغتني دائماً بأسئلة غير متوقعة ؟!

تابع عبد الحميد :

- ربما كانت الطمأنينة جزءاً من الفطرة ٠٠ شيئاً كالذكاء والبديهة والموهبة ٠٠ شيئاً لا يدركه الإنسان بالتعلم والمثابرة .

قام عبد الحميد إلى غرفته ٠٠ وهو يدندن مطلع قصيدة جديدة :

- أهـــرب مـــن نفســـي الأمـــــــارة

فتباغتنـــي نفســـي اللوامـــــة

أركـــض حتـــى تتقطـــع أنفاســـي

وأذوب أســـــى وندامـــــــة

بدل ملابسه ٠٠ وضع رأسه على المخدة ٠٠ استغرق في النوم ٠٠ دون أن يكمل قصيدته .

(١٥)

وصلت الممثلة البريطانية فينيسيا ردغريف إلى ملبورن لكي تقدم على المسرح قراءات من شعر شكسبير ٠٠ غص مسرح الأولمبياد على سعته بالمعجبين بفنها ٠٠ أبدعت فينيسيا في قراءتها وحصدت تصفيق الحاضرين مراراً .

في المؤتمر الصحفي الذي عقدته بعد الانتهاء من القراءة ٠٠ أجابت بجرأة على كل الأسئلة التي طرحت عليها ٠٠ بما في ذلك موقفها المؤيد للشعب الفلسطيني .

تنادت الجالية لإقامة حفل عشاء تكريماً لصديقة العرب ٠٠ تحمل عبد الحميد برحابة صدر نفقات الاحتفال الذي جرى في أحد المطاعم الفخمة .

ألقيت كلمات قصيرة للترحيب بالفنانة الكبيرة وشكرها على مواقفها ٠٠ وترجمت لها ابنة عبد الحميد إحدى قصائد والدها ٠٠ دمعت عيناها حين وصلت الترجمة إلى المقطع الذي يقول فيه عبد الحميد عن الفلسطينيين :

- أعمارنا قصيره
لكننا نخلد حتى آخر الزمن
حين تمر تحت نوافذ الوطن
نعوشنا الصغيره
ملفوفة بعلم الحريه

صفقت فينيسيا ٠٠ وصفق الحاضرون لدموعها .

في آخر الحفلة انصـــرف الحاضرون ٠٠ وانضمت فينيسيا إلى أصـــدقاء عبد الحميد في أحد أركان المطعم لتناول المشروبات ٠٠ والاشتراك فـــي الســـمر الذي تعد به الأمسية الدافئة ٠٠ لكن السمر سرعان ما تحول إلى حوار ساخن بين البروفيسور دينيس (المستشرق الأسترالي والأستاذ المحاضر بجامعة ملبورن ٠٠ قسم دراسات الشرق الأوسط) ٠٠ وبين فرسان الجاليـــة العربيـــة ٠٠ تشـــجعت الشاعرة الأرجنتينية أنّا على البقاء ٠٠ حين رأت فينيســـيا تأخـــذ مجلســـها بـــين أصدقائها العرب .

قال عبد الحميد وقد اشتدت سخونة الحوار :

– لنتفق أولاً يا بروفيسور على مفهوم محدد للتقدم والتخلف .

أجابه دينيس :

– لا بأس ٠٠ التقدم هو ما نعيشه اليوم في الغرب ٠٠ حقوق الإنســـان المكفولـــة للجميع ٠٠ الديمقراطية ٠٠ التداول الســـلمي للســـلطة ٠٠ التكنولوجيـــا الحديثـــة وتطبيقاتها في الصناعة والتجارة والزراعة ٠٠ أما التخلف فهو ما تعيشـــه بلـــدان العالم الثالث وأنتم العرب في طليعتهم .

رد عبد الحميد :

– إذا فأنت تعتقد يا دينيس أن حضارتكم الغربية هي اليوتوبيا .

– لم أقل ذلك ٠٠ سألتني عن مفهومي للتقدم فأعطيتك وجهة نظري .

تنهد عبد الحميد :

– العبرة يا دينيس بالنتائج ٠٠ كنا سنتفق معك على أن ما حققه الغـــرب هو التقـــدم لولا السلبيات الكبيرة التي تحف بالتجربة الغربية ٠٠ (الخواء الروحـــي ٠٠ انـــدثار القيم ٠٠ انهيار العائلة ٠٠ الانحراف بأشكاله المختلفة ٠٠ تفشي البطالة ٠٠ الجريمة المنظمة ٠٠ المخدرات ٠٠ العنف ٠٠ الانتحار ٠٠ التحرش الجنسي ٠٠٠ إلخ) ٠٠

كل هذا سيؤدي إلى السقوط المروع للحضارة الغربية أنتم تتقدمون إلى الخلف يا بروفيسور .

أجاب دينيس :

- أنا لا أنكر ملاحظاتكم ولكن ذلك هو ثمن التحضر .. إنه جزء من التجربة .

تدخل سعيد غيث ببسالة :

- لقد عشنا في ظل الحضارة الإسلامية ألف سنة .. دون أن يصيبنا ما أصابكم .

قال دينيس باستخفاف :

- حقاً !! ؟؟

قال عبد الحميد :

- حقاً وصدقاً .. ذلك لأننا لم نغفل الجانب الروحي للتجربة .. الحضارة يا سيدي تشبه الكائن الحي في مراحله المختلفة .. حين ولدت الحضارة في بلادنا احتفينا بالمولود كله .. تعهدنا روحه بالرعاية كما تعهدنا جسده .. فجاء إنساناً سوياً .. متوازناً سعيداً .. أما أنتم أيها الغربيون فقد تعهدتم الجسد تاركين الروح فأي مسخ هذا الذي صنعتموه .

تذمر دينيس :

- قدمنا مشروعنا للحضارة ولم نرغم أحداً على تقليده .. الآخرون رأوا فينا النموذج الأحسن بين النماذج المعروضة فقاموا بتقليدنا .. هذا ليس ذنبنا .

سفه قدري رأيه :

- هراء لقد حاربتم وحاصرتم كل التجارب الأخرى للتقدم .. وقامت وسائل إعلامكم بأكبر عملية غسل للأدمغة .. أظهرت إيجابيات الرأسمالية فقط ولم تتكلم عن سلبياتها .. عممتم على العالم النمط الأمريكي في الاستهلاك .. حولتم الناس إلى مكائن لصنع الخراء .

أدرك قدري سقطة لسانه أمام السيدات .. فاعتذر .

قالت رُلى لصديقتها مي :

– سوف يواصلون طحن الهواء طوال الليل ٠٠ إن فرانك ينتظرني على باب السينما ٠٠ سأزعم أن عندي محاضرة مسائية في الجامعة .

استأذنت رُلى ٠٠ وغادرت .

تابع دينيس :

– الأمر ليس بهذه البساطة ٠٠ الحضارة إرث إنساني يشارك فيه الجميع ٠٠ وحضارتنا هي محصلة لكل الحضارات التي سبقتها ٠٠ لقد أخذنا نحن الغربيين الكثير من حضارتكم العربية .

قال عبد الحميد بأسى :

– دعني اشرح لك يا بروفيسور ٠٠ ما الذي أخذتموه منا وما الذي عجزتم عن أخذه ٠٠ في حضارتنا العربية ٠٠ القوة مقرونة بالرحمة ٠٠ والقدرة بالعفو ٠٠ والحرية بالمسئولية ٠٠ والعلم بالخلق ٠٠ أما عندكم أنتم ٠٠ فالقوة مجردة من الرحمة ٠٠ والقدرة معزولة عن العفو ٠٠ والعلم مبتور عن الأخلاق ٠٠ لم يعد لديكم كوابح ٠٠ فأوصلتم العالم إلى الجحيم الذي هو فيه .

كان هدف الإسلام ٠٠ الذي هو روح الحضارة العربية ٠٠ أن يحظى المسلم بسعادة الدارين ٠٠ الدنيا والآخرة ٠٠ فما هو هدف حضارتكم الآن ؟ ٠٠ إن هدفها هو تحقيق المتعة فقط ٠٠ المتعة الرخيصة السريعة (*Have Fun*) .

قاطعه سعيد غيث :

– هكذا وصلنا إلى الإيدز .

تدخلت فينيسيا ريدغريف :

– ألم تسمعوا بما حدث في نيويورك عندما انقطع التيار الكهربائي ٠٠ نهب أهل نيويورك معظم المتاجر ٠٠ ثم اقتتلوا على المنهوبات وسال الدم في الشوارع .

هؤلاء لم يكونوا لصوصاً ٠٠ كانوا مواطنين محترمين غاية في التحضر ٠٠ قبل انقطاع التيار بدقائق .

قال عمر الشحات :

– في حواضر الإسلام ٠٠ كان الناس يذهبون للصلاة في المساجد ٠٠ تاركين بضائعهم الثمينة مكشوفة في الساحات دون أن يمسسها أحد ٠٠ هذا هو الفارق بين ما أعطته حضارتنا ٠٠ وما تعطيه حضارتكم يا دينيس .

قدري لم يعجبه الحديث عن الحضارة الإسلامية ٠٠ ولكن سكت ما دام في ذلك إدانة للحضارة الغربية ونظريتها الرأسمالية ٠٠ بل إنه زادهم من عنده .

– لقد أنفق الغرب عام ١٩٨٩ ألف مليار دولار على التسلح تاركاً مائة مليون إنسان يموتون من المجاعة في أفريقيا وآسيا .

الأمريكان خمسة في المائة من سكان العالم ٠٠ ومع ذلك فهم وحدهم يستفردون بسبعين في المائة من مجمل الدخل فيه .

أكملت فينيسيا إقفال الدائرة على دينيس :

– الذين لا تقتلهم المجاعات ٠٠ والأوبئة ٠٠ والحروب الأهلية ٠٠ تقتلهم النفايات الذرية والكيماوية والسموم التي يدفنها الغرب في أراضيهم ٠٠ أو يلقيها على شواطئهم .

قال البروفيسور دينيس :

– نحن لم نقفل باب الحوار مع أي كان ٠٠ كنا دائماً وما زلنا مستعدين للتحاور .

قالت الشاعرة الأرجنتينية أنّا :

– حدثهم يا بروفيسور عن حوارنا مع حضارة الأنكا والمايا في أمريكا الجنوبية ٠٠ أو حوارنا مع أفريقيا الذي أدى إلى قتل مائتي مليون زنجي ٠٠ واسترقاق عشرين مليوناً منهم ونقلهم قسراً إلى الأمريكتين .

تلقف عبد الحميد الكرة من أنّا :

– أو حواركم مع الحضارة العربية في الأندلس (دخلتم مالقا صلحاً ‥ ورغم ذلك قسمتم أهلها ثلاثة أقسام ‥ الثلث جعلتموهم عبيداً لملكي قشتالة وأراجول ‥ والثلث للعمل في الأشغال الشاقة المؤبدة والثلث الأخير وجله من النساء والأطفال أهدي إلى البابا ونبلاء أوروبا) ‥ بلغ الخبر الآستانة ‥ استشاط السلطان غضباً وأقسم أن لا يبقي في بلاده نصراني واحد ‥ إما أن يسلموا أو تضرب أعناقهم .

قال له شيخ الإسلام :

– هؤلاء أهل الذمة ‥ وليس لك عليهم إلا الجزية ‥ فإن حملتهم على غير ذلك ‥ سقطت بيعتك ووجب على المسلمين اختيار خليفة غيرك .

كف السلطان عنهم ‥ ذلك هو الفرق بين حضارتينا .

قال عمر الشحات :

– والفرق بين دخول الصليبيين القدس يوم كتبوا للبابا ‥ (خاضت خيولنا في دماء المسلمين إلى الركب ‥ ودخول صلاح الدين بعدهم) .

تدخلت فينيسيا في الحوار للمرة الثانية :

– حتى إذا استثنينا ما حدث للعرب ‥ فبماذا يفسر البروفيسور دينيس حرب الأفيون في الصين ‥ أو القنبلة التي ألقيت على هيروشيما واليابان على وشك الاستسلام ‥ هل كان ذلك نوعاً من تحاور الحضارات ؟

زمجر قدري بعلو صوته :

– حاجي تحكو عن تحاور الحضارات ‥ الحضارة الغربية لا تحاور الآخرين ‥ ولكنها تفترسهم.

نظرت فينيسيا إلى ساعتها ‥ بدأت تجمع أشياءها ‥ فهم الجميع أن الجلسة أخذت مداها ‥ وقفت فوقفوا لوداعها ‥ شيعوها حتى باب المطعم ‥ قبلت عبد الحميد ‥ صفقوا له كما لو أنه نال جائزة يحسد عليها .

(١٦)

بدؤوا يتجمعون في حديقة الإكسبنشن منذ الصباح الباكر ٠٠ تركوا مطاعمهم ومقاصفهم ودكاكينهم وبسطات الثياب والخضار التي يعتاشون منها وجاءوا زرافات ووحدانا ٠٠ في هذه المرة لم تكن هناك لجنة تدعو إلى المظاهرة أو تنسق لها مع الشرطة ٠٠ ظللت محطات التلفزيون طوال الليل تبث مشاهد من مذبحة صبرا وشاتيلا ٠٠ الجثث المنفوخة لأطفال في عمر الورد ٠٠ وشيوخ ونساء لم يكن لهم أي ذنب سوى أنهم فلسطينيون .

الذين توافدوا إلى الساحة ٠٠ لم يتبادلوا سوى عبارات المجاملة القصيرة بعضهم كان يحمل أعلاماً فلسطينية ٠٠ أو لافتات كتبت على عجل ٠٠ توقفت أمام باب الحديقة شاحنة تحمل سبعة نعوش ملفوفة بعلم فلسطين ٠٠ نعوش فارغة لجنازة وهمية .

في الساعة الثالثة بعد الظهر كان الحشد قد بلغ ذروته ٠٠ فلسطينيون ٠٠ عرب من كل الأقطار ٠٠ أصدقاء معروفون للجالية ٠٠ وجوه جديدة لم يؤثر عنها التعاطف مع القضية الفلسطينية يونانيون وإيطاليون وألمان ٠٠ الشرطة بدلاً من مواجهة المظاهرة سارعت لإصدار إذن استثنائي قال ضابط الشرطة وهو يخرج دفتره لكتابة الترخيص :

– أريد بعض البيانات .

تقدم لطفي عواد نحوه وأعطاه البيانات المطلوبة :

– المظاهرة ستمر بالبرلمان ثم نتوجه إلى سان كلده رود لنسلم رسالة للقنصل الأمريكي .

– كم سيستغرق ذلك من الوقت ؟

– ساعة لنصل إلى القنصلية ٠٠ أما الاعتصام في الحديقة المقابلة لها فقد يستغرق الليل كله .

– هل لضحايا المجزرة أقرباء يشاركون بالتظاهرة ؟

هز سعيد رأسه بالإيجاب .

– كان الله في عوننا إذن .

منحهم الإذن ٠٠ وأكد عليهم :

– لا تتحركوا قبل الساعة الرابعة ٠٠ نريد وقتاً كافياً لإتمام الإجراءات ٠٠ تعلمون ذلك .

كان لطفي قد اتصل هاتفياً بوجوه الجالية وأخبرهم أن العرب سيعتصمون هذه الليلة أمام القنصلية الأمريكية .

جهز عبد الحميد السلطان ثلاثين مشعلاً من المشاعل التي يستخدمها المزارعون وصفيحة من الكيروسين لتغذية المشاعل ٠٠ نزل هو وأولاده في مكان التجمع ٠٠ أمر سائقه بأن يسبق التظاهره ويقف بالسيارة في أقرب مكان للقنصلية

تحرك الموكب في الوقت المتفق عليه ٠٠ لم يقو أحد على فتح فمه ٠٠ كلما حاولوا الهتاف كانت العبرات تخنقهم وكانت صدورهم تتميز من الغيظ ٠٠ وسائل الإعلام الأسترالية التي خضعت طويلاً للنفوذ الصهيوني وتواطأت ضد الفلسطينيين وتحاملت على العرب ٠٠ بدا لأول وهلة أنها تحررت في ذلك اليوم من كل أغلالها .

قال مراسل التليفزيون للمصور الذي كان يلتقط صوراً لأطفال الجالية الذين يسيرون في مقدمة المظاهرة وهم يلبسون ثياباً بيضاء ملطخة باللون الأحمر تشبهاً بضحايا المذبحة من الأطفال سنهم :

– أريد صوراً ساخنة ٠٠ صوراً توقظ ضمائر الناس ٠٠ إن ما حدث في صبرا وشاتيلا جريمة ٠٠ جريمة حقيقية بكل المقاييس .

توقفت التظاهرة أمام البرلمان ٠٠ تسلم رئيس البرلمان عريضة تطالب بالوقوف إلى جانب الشعب الفلسطيني وتأييد حقوقه العادلة ٠٠ واستنكار كل المذابح التي تعرض لها من دير ياسين إلى صبرا وشاتيلا ٠٠ قبل مغادرة المكان وقف عبد الحميد السلطان على أعلى درجة من درجات المبنى وفي يده الميكروفون يجأر بصوت تغالبه الدموع :

- نحن ولدنا في الخيمة
و كبرنا في الخيمة
و قتلنا في الخيمة
و دفنا في الخيمة
وسنبعث يوم الحشر وكل يحمل خيمته
يا ربي ٠٠
هذا ما أعطانا الوطن العربي ٠٠ خيام
هذا ما أعطتنا الأمم المتحدة والرأي العام
هل حد الجزار المدية حتى لا تؤلم
أعناق الأطفال طرية
وتركناهم في صبرا أفراخ يمام
نحن دعاة سلام
من ضرب على الخد الأيمن
نعطيه الخد الأيسر
و نداس ونسحق بالأقدام

أجهش السلطان بالبكاء وعلا نحيب الحاضرين ٠٠ لم يستطع أن يكمل قصيدته .

تناول فوزي خميس الميكروفون وطلب من الجميع متابعة المسيرة إلى سان كلده رود ٠٠ تحرك الموكب مهيباً صامتاً ٠٠ وقد حبس الناس أنفاسهم كأنهم في يوم الحشر .

قالت رُلى زيدان لصديقتها مي السلطان :

– انظري الذي يحمل صورة ياسر عرفات ٠٠ الأشقر الطويل ٠٠ ذلك هو فرانك نظرت مي إلى حيث أشارت صديقتها وبلعت ريقها ٠٠ كان وسيما رشيق القوام ٠٠ وقد تهدل شعره الأشقر حول وجهه وانتهى بجديلة طويلة .

قالت باقتضاب :

– لا بأس .

– حسبتك ستنبهرين به ٠٠ ألا يشبه جيسوس كرايس [1] .

– المهم الأخلاق .

– هو طيب وحنون ومحب ٠٠

– لكن رجلاً مثله لديه مواصفات دون جوان حقيقي ٠٠ أنت في ورطة ٠٠ أرجو أن يخلص لك هذا الرجل ٠٠ في شهر العسل على الأقل .

– ما الذي تعنينه ؟

– بعد شهر العسل عليك خوض معركة كل ليلة مع امرأة منافسة قبل أن تعودي به إلى فراشك .

اصفر وجه رُلى .

– لماذا تخوفينني ٠٠ وتفسدين فرحتي .

---

١. جيسوس كرايس : عيسى المسيح .

– ليتني أستطيع تخويفك بما يكفي لتغيير رأيك ٠٠ إن ما تنوين فعله هو الجنـــون بعينه ٠٠أنت مقدمة على كارثة .

– فات الوقت ٠٠ لم يعد ذهني صافياً ليسعفني ٠٠ لم أعد قادرة على إعادة التفكير في الأمر ٠٠ أحس أنني مستلبة مثل شاة في طريقها إلى المسلخ .

– أي حب هذا ؟

– لن تفهميني ٠٠ يدك ليست في النار ٠٠ بعد انفضاض المظاهرة سأصطحبك إلى السينما ٠٠ لن يلاحظ أحد غيابنا في هذه الفوضى ٠٠ هناك فيلم يعرض الآن قـــد يشرح لك ما أعنيه .

– أي فيلم يا مجنونة ؟

– عشيق الليدي تشاترلي ٠٠ قرأت الرواية وهي تفسر لك ما يحدث معي ٠٠ هذه الماكينة التي اسمها الجسد ٠٠ حينما تبدأ في العمل لا يستطيع إيقافها أحد .

قالت مي ساخرة :

– هب الهوى ٠٠ الله ينجينا من هبوب الهوى .

في آخر المظاهرة كان فادي ابن عبد الحميد السلطان وشاهين ابـــن علـــي زيدان وياسر ابن قدري شامية ٠٠ يبالغون في اظهار حـــزنهم أمـــام صـــديقاتهم الأستراليات ٠٠ وهم يمنون النفس بالحنان والمواساة الصادقة التـــي سيحصـــلون عليها بعد انفضاض التظاهرة ٠٠ أما ناجي فقد حرص على أن يلازم والده ملازمة الظل وأن يلبي أي إشارة تصدر عنه .

تقدم ألماني عجوز من منال عنبر وأشار إلى اللوحة التي تحملها :

– لماذا تضعين الصليب المعقوف فوق نجمة إسرائيل ؟ ٠٠ إنك تدنســـين رمـــزاً عزيزاً على قلوب شعبنا ٠٠ هل تصدقين أن الرايخ الثالث أحـــرق اليهـــود فـــي الهولوكست ٠٠ هذه دعاية كاذبة ٠٠ لم نحرقهم ٠٠ اكتفينا بطردهم بعد أن مصوا دماء شعبنا ٠٠ ها هم يمصون دماءكم الآن ٠٠وأرجو أن تكتفوا بطردهم كما فعلنا؟

لم تجبه منال عنبر بشئ ولكنها احتراماً لشيخوخة الرجل أعطت اللوحة لابنها وأمرته أن يخفيها .

وصلت المظاهرة أمام القنصلية الأمريكية .. رصت النعوش على مدخل البناية ونصب المتظاهرون متاريسهم في الحديقة المقابلة للمبنى حتى يخرج القنصل ويتسلم رسالتهم وينقلها إلى الرئيس الأمريكي .

زوجة سعيد غيث اشتبكت معه في نقاش حاد .. مصرة على العودة إلى ياكدندا .. بحجة أن المظاهرة قد انتهت .. ولا داعي لمشاركته في الاعتصام .. وحين أصر على رأيه لم تعره التفاتاً .. أخذت أولادها وغادرت تاركة زوجها يرغي ويزبد .

كان الظلام قد بدأ يخيم على الحديقة .. أمر عبد الحميد ولده ناجي وسائقه بإعداد المشاعل توزيعها على السفح المواجه للطريق العام .. لتلفت أنظار المارة

بعض المتظاهرين انفضوا إلى بيوتهم .. على أن يعودوا بعد قسط من الراحة .. البعض فضل مواصلة الاعتصام .. خصوصاً الذين جاءوا من أماكن بعيدة .

نعس الأطفال .. حاولت الأمهات إعداد أماكن في السيارات لإضجاعهم بعضهم أغرق في النوم وبعضهم ظل قلقاً يتوجس .. والبعض لم يكف عن البكاء

جلس المعتصمون في حلقات .. مكوعين .. أو متمددين على العشب الأخضر .. تناولوا الساندويتشات .. وبدأوا في ارتشاف فناجين القهوة والشاي .. وتبادل الأحاديث .. وحدت بينهم الكارثة فبدوا كأنهم أبناء عائلة واحدة .

أبو جيمي قال لشقيقته منال .. وهي تهم بالمغادرة مع بعض نساء الجالية:

– ولا يهمك يا منال تركت في الساحة رجال بتاكل راس الحية .

ضحك زوجها أبو الصخور .

قال سعيد غيث :

– إنه يفنص على عادته ٠٠ فهو يعرف أنها الرجل الوحيد في العائلة .

ما أن انصرفت منال ٠٠ حتى أيقن شقيقها أبوجيمي أن باستطاعته أن يكذب على سامعيه دون رقيب .

انفجر فوزي خميس :

– كل هذه المصائب سببها غياب عبد الناصر ٠٠ لو كان عبد الناصر حياً لما جرؤ اليهود على الاستفراد بلبنان والتنكيل بنا .

انقض أبو جيمي لكي يمسك بطرف الخيط :

– أنا قابلت المرحوم جمال عبد الناصر .

حملقوا فيه مشدوهين .

شخر سعيد غيث :

– في الفالوجة ؟ (١)

– لا في بيتو بمنشية البكري .

لم يعترض أحد من الجالسين ٠٠ فانطلق أبو جيمي :

– خيي انمسك في مصر بتهمة تهريب الحشيش ٠٠ الكل تخلى ٠٠ ما عدا حسنين هيكل ٠٠ يا بيي هالزلمة شو آدمي ٠٠ وصاحب صاحبو .

سحب نفساً من أرجيلته وتابع :

---

١. الفالوجـــة : قرية فلسطينية حاصر الصهاينة فيها عام ١٩٤٨ كتيبة للجيش المصري بقيادة السيد طه وكان عبد الناصر أحد ضباط هذه الكتيبة .

– هيكل رتب لي مقابلة مع سيادة الرئيس عبد الناصر ٠٠ سمع القصة كلها وقاللي (يا أبو جمال إحنا بنقدر تصديك لحلف بغداد انت وجماعتك أيام ما طيرتو هـزاع المجالي ٠٠ لكن القضية ما بتتعلـق بشخصي ٠٠ دي قضية تمـس الشـعب ٠٠ السـموم إللي حملها أخوك كانت موجهة لأبناء مصر ٠٠ المبـادئ مـا فيهـاش مساومه) .

انحكم خيي مؤبد ٠٠ الله يفك سجنو بجاه النبي ٠٠ قولو آمين .

لم يقل أحد آمين ٠٠ فأدرك أبو جيمي أنهم لم يتعاطفوا معه هذه المرة .

رانت برهة من الصمت ٠٠ تأمله السلطان ٠٠ بدا له محاصراً ومنهكاً ٠٠ فأشفق عليه .

سأله سعيد غيث :

– إيش لم الشامي على المغربي ٠٠ حسنين هيكل صحفي كبير ٠٠ وإنت حلوانجي كيك .

تعلق أبو جيمي بالقشة التي ألقيت له :

– المغفـور له شـكري القوتلي كان أعز أصدقائي ٠٠ شاورني فـي موضـوع الوحدة ٠٠ (شو قولك يا أبو جمال ٠٠ بنعمل وحدة مع مصر ٠٠ بتنصح فيها ؟) أنا شجعت القوتلي ٠٠ حسنين هيكل كان بالشام ٠٠ عرف مـوقفي مـن الوحـدة وصرنا أصدقاء على العظم .

قال علي زيدان ساخراً :

– والله أنا خايف يكونوا إللي شاوروك جماعة الانفصال ٠٠ مش جماعة الوحدة .

هتف قدري شامية من مكمنه تحت تمثال فكتوريا :

– تذكر منيح يا أبو جمال ٠٠ شو اسم اللي شاورك ٠٠ القوتلي ٠٠ وألا الكزبري

ضحكوا لأول مرة منذ بدأت المسيرة . استأذن أبو جيمي في الانصـراف فعرف الجميع أنه ذاهب إلى دكان المراهنات .

سأله عبد الحميد السلطان :

– شو يا أبو جيمي ٠٠ لسه ما برم الدولاب .

أجاب أبو جيمي :

– الليلة ببرم ٠٠ بصير سلطان متلك ٠٠ وبنقسم استراليا بالنص .

(١٧)

فتل عبد الحميد السلطان شاربه باعتزاز ثم عقف طرفيه إلى أعلى ٠٠ فقد قبل الأب زكريا دعـوته إلى الغذاء ٠٠ الأسترال والعرب الذين تمـت دعـوتهم أعربوا عن سعادتهم البالغة لتلبية الدعوة ٠٠ تنفس عميقاً وهو يراقب من الشـرفة العجول الصغيرة التي تتراكض سعيدة بالنهار المشمس ٠٠ سرح بعينيه إلى أقصى السهل حيث يتعرج النهر الصغير بين ضفتين تنهض عليهما أشجار داكنة الخضرة

بدأت السيارات في الوصول تباعاً تحمل الأصدقاء المقربين ونساءهم اللواتي تطوعن للمشاركة في إعداد الوليمة .

قالت زوجة عبد الحميد للخادمة :

- ها هي النجدات تصل تباعاً .

بعد العناق اتجهت السيدات إلى المطبخ وبدأن في تقشير البصل والثوم وغسل الخضار ٠٠ ظهر باري على باب المطبخ يحمل على كتفه ذبيحة سمينة .

ألقى بتحية الصباح واصطنع الأهمية البالغة لنفسه :

- جهزنا لكم أمس أربعة حملان من حملان المزرعة ٠٠ ذبحها السلطان على الطريقة الإسلامية ٠٠ وساعدته في سلخها وتعليقها في الغرفة المبردة .

ضرب على ظهر الذبيحة بكفه :

- من يصدق أن هذا الخروف الضخم رضيع في شهره السادس ٠٠ ثم حجل بساقه العرجاء وخرج ليحضر باقي الذبائح من سيارته .

سعيد غيث كان أول ضيف يصل ٠٠ صف سيارته في الساحة ٠٠ ترجل هو وعائلته ٠٠ فتح غطاء السيارة الخلفي ٠٠ تنـاول صندوقـاً كبيـراً من الكرتون ٠٠ حمله على ظهره ٠٠ راقبه عبد الحميد وهو يصعد درجات المدخل المؤدية إلى الشرفة وقال في سره :

(صندوق من عصير التفاح (السايدر) ٠٠ أصيل يا سعيد ٠٠ لا تدخل على الناس بيد فارغة) .

وقف عبد الحميد لمعانقة ضيفه ٠٠ والترحيب به وبعائلته ٠٠ بدا سعيد فرحاً ومتألقاً ٠٠ قال لأولاده وهو يجلسهم إلى جواره .

تأملوا علم فلسطين الذي يرفرف على السارية في منتصف الساحة :

- كأننا وصلنا إلى أرض الوطن ٠٠ كل شئ هنا عربي الوجه واليد واللسان .

قالت زوجة السلطان ٠٠ وهي تعانق سارة الابنة الكبرى لسعيد غيث :

- ما شاالله على بنتك يا سعيد ٠٠ صارت عروس .

ضحك سعيد غيث مغتبطاً .

بدأت الوفود بالوصول ٠٠ منال عنبر انهمكت في إعداد أرجيلتها .

- قعده حلوة وطله عالبحر بلا أرجيلة ما بتسوى .

قال زوجها أبو الصخور :

- يا ريت بتحبيني قد ما بتحبي هالأرجيلة .

نظرت إليه بغنج ثم غمزت :

- يا تقبرني ما أخف دمك .

وصل المستشرق الأسترالي البروفيسور دينيس ٠٠ أراد أن يستغل وجوده بين العرب لتحسين نطقه بالعربية ٠٠ ألقى السلام بطريقة أضحكت الجميع :

- السلام عليكي .

رد عليه عبد الحميد وهو يهب لمصافحته :

- وعليكي السلام أيتها المستشرقة العظيمة .

ضحك الحاضرون ٠٠ تلفت عبد الحميد حوله وكأنه يعتذر :

- خفت أن أحدثك بعربية سليمة فلا تفهمني ٠٠ فحييتك بمثل تحيتك .

قاطعه دنيس صاخباً وهو يهز سبابته :

- في القرآن الكريم (خيوا بأخسن منها) .

رفع عبد الحميد يديه مستسلماً :

- غلبتني هذه المرة يا دينيس ٠٠ وسأرد عليك بعربية سليمة ٠٠ عليك السلام ورحمة الله وبركاته ٠٠ تفضل بالجلوس .

اتخذ دينيس مجلسه في صدر القاعة حيث أشار له عبد الحميد :

لاحت سيارة داني مالك في مدخل المزرعة ٠٠ تأفف الحاضرون ٠٠ أسر على زيدان في أذن عبد الحميد :

- لماذا دعوت هذا الجاسوس ؟ .

رد عبد الحميد ضاحكاً :

- نحن لا نخطط لقلب نظام الحكم ٠٠ لا في أستراليا ولا في أي بلد آخر ٠٠ فلماذا نخشاه ؟

دخل داني وزوجته إيفيت ومعه رجل قدمه للحاضرين :

- أيوب الحلو صديق عمري ٠٠ استقدمته إلى أستراليا على كفالتي ٠٠ وهو ضيفي الآن .

استأذنت إيفيت الحاضرين لتتجول بالضيف وتفرجه على المزرعة ٠٠ انطلقا باتجاه النهر .

عمر الشحات راقبهما وتذكر كيف صدته إيفيت بفظاظة حين تعرض لها ذات ليلة :

قال في سره :

- تمـــوت الأســـد في الغابات جوعـــاً

ولحـــم الضـــأن تأكلـــه الكـــلاب

وصلت (أنَّا) الشاعرة الأرجنتينية وزوجها الأسترالي ٠٠ كانت تحمل نسخة بالإنجليزية عن رواية مواطنها (جارثيا ماركيز) مئة عام من العزلة ٠٠ كتبت عليها إهداءً لعبد الحميد السلطان

انتهز قدري الفرصة :

– لو بقي جيفارا حياً ٠٠ لكانت الثورة الشيوعية قد حررت الآن أمريكا الجنوبية كلها ونصف أمريكا الشمالية ٠٠ ولكنا الآن ندق أبواب واشنطن .

رد عمر الشحات بسخرية :

– أنتم لم تكفوا لحظة عن دق أبواب واشنطن طلباً للقمح ٠٠ إنها معجزتكم الحقيقية الوحيدة أيها الشيوعيون ٠٠ تزرعون القمح في أوكرانيا ٠٠ وتحصدونه في أمريكا

تدخلت أنَّا لتحسم النزاع :

– المسألة ليست كون جيفارا حياً أو ميتاً ٠٠ الثورة ظروف داخلية يجب أن تنضج

قال قدري :

– وهل هناك ظروف أنسب وأكثر نضجاً من ظروف أمريكا اللاتينية ٠٠ الظلم الصارخ للرأسماليين والاستغلال البشع للأرض والإنسان .

ردت أنَّا :

– الظلم وحده لا يكفي لقيام الثورة وانتصارها ٠٠ يجب أن يواكبه إحساس الناس بالظلم ووعيهم بضرورة إزالته ٠٠ ثم التنظيم الدقيق والتعبئة والحشد .

قاطعها الدكتور علي زيدان :

– وأن لا يتسلل إلى صفوف الثوار اللصوص والمرتزقة والخونة ٠٠ فالطهارة الثورية ضرورية ٠٠ ليس فقط على مستوى القادة ولكن على مستوى العناصر الصغيرة في الثورة أيضاً ٠٠ لأنهم على تماس دائم مع الناس ٠٠ وسلوكهم سوف يبلور رأي الناس في الثورة ويزيد أو يقلل التفافهم حولها .

أراد الدكتور أن يسترسل ٠٠ لكن وصول موكب الضيف قطع عليه الحديث ٠٠ هب الجميع لاستقبال الأب زكريا .

قال عبد الحميد وهو يقدمه لضيوفه :

– أبونا زكريا راعي الكنيسة الأنجليكانية في الناصرة وهو يزور أستراليا بدعوة من اتحاد الكنائس أبونا اتخذ من زيارته فرصة ليشرح للاسترال ما خفي عنهم من حقائق الموقف في فلسطين ٠٠ وأن يكسب تعاطفهم معنا ٠٠ نحن فخورون به ٠٠ وبالنجاح الذي حققه ٠٠ ثم قدم للضيف المدعوين واحداً واحداً .

عاد الجميع إلى مقاعدهم ما عدا سعيد غيث الذي انحاز إلى حيث تجلس منال عنبر :

– تسمحيلي يا منال أحكي شوية عربي معك ٠٠ زهقت روحي من الحكي بلغة الأجانب .

غنجت منال :

– مو علي عيني .

دخلت إيفيت زوجة داني مالك مضطربة ٠٠ ألقت بالتحية من بعيد ٠٠ انسلت إلى داخل البيت ٠٠ أما أيوب فاتجه إلى حيث يجلس الأب زكريا ٠٠ سلم واتخذ له مقعداً .

همست منال في أذن سعيد وهي تشير إلى حيث اختفت إيفيت :

– راحت الحمام تطمن على مكياجها بعد ما لخبطو إبن الحرام ٠٠ ما صبر حتى يرجعوا البيت ٠٠ والمصيبة إنو إسمو أيوب .

جاهد سعيد لكي يخفي ابتسامته فتابعت وهي تنفث دخان أرجيلتها :

– ياللي حارق قلبي ٠٠ إنكو بتقولوا على جوزها جاسوس (خبطت على صدرها) جاسوس ما بعرف شو بصير في بيتو ٠٠ نيال هالدولة إللي بتجسس عليها .

انفتح الباب المؤدي إلى قاعة الطعام على سعته فأصبحت متصلة بقاعة الجلوس وظهرت السيدة ثريا بقامتها الفارعة الممتلئة ٠٠ وابتسامتها التي تشع نضارة وحيوية ٠٠ كانت ترتدي ثوباً سماوياً غاية في الأناقة والحشمة ٠٠ قالت بإنجليزية سليمة :

- أهلاً وسهلاً بضيوفنا الأعزاء ٠٠ تفضلوا على الرحب والسعة .

قال قدري هامساً في أذن الأب زكريا :

- في مآدب عبد الحميد نفتقـد الخمر الذي يصلح المعدة ٠٠ لعل فتوى منك يا أبونا ٠٠ يستجيب لها عبد الحميد على محمل الوطنية ٠٠ فتحل عقدتنا معه .

أجاب الأب زكريا وقد استداروا حول الخوان الممدود :

- الفتوى تصدر عن شيخ وليس عن قسيس ٠٠ وتكون قبل الوقوع في الإثم ٠٠ أما دورنا نحن القساوسة فيأتي بعد الوقوع في الإثم ٠٠ حيث نتلقى الاعتراف ونمنح المغفرة ٠٠ لقد تقاسمنا العمل مع المشايخ ٠٠ ولا نريد أن يتدخل أحدنا في عمل الآخر ٠٠ حتى لا تضطرب الأمور .

قال قدري :

- إذا عليَّ أن أقنعه بالشرب ٠٠ ثم أحضره لك بعد ذلك للاعتراف ٠٠ والحصول على المغفرة .

ضحكوا جميعاً .

أجلس عبد الحميد ضيوفه حول الخوان ٠٠ بدأ باري بتقطيع شرائح الخراف وتوزيعها على الحاضرين ٠٠ قال عبد الحميد وهو يشير إلى الطعام .

تستطيع الآن يا أبونا أن تتلو صلاة المائدة .

أغمض الأب عينيه وهو يتلو صلاته ثم بسط راحتيه :

- بسم الله الرحمن الرحيم .

تلقى عبد الحميد المجاملة وفهمها ٠٠ قدر المسلمون هذه اللفتة الكريمة من الأب زكريا الذي تابع بعد ذلك بقوله (فليبارك الله طعامنا وشرابنا) ٠٠ ردوا عليه بصوت واحد :

آمين .

انصرفوا لتناول طعامهم بصمت لا يقطعه إلا احتكاك أدوات المائدة .

❋❋❋

دخلت الخادمة تدفع أمامها عربة الحلوى ٠٠ ساعدتها مي ورُلى في توزيع الأطباق على الحاضرين ٠٠ قدمت مي طبقاً إلى ليز زوجة سعيد غيث ٠٠ صدتها بيدها ٠٠ حاولت تشجيعها :

- هذه حلوى عربية لذيذة اسمها بقلاوة ٠٠ جربيها .

- إن ذلك يسقمني ٠٠ يجعلني مريضة حتى الموت .

- الحلوى ؟

- كلا ٠٠ ولكن وصفكم لكل شئ جيد بأنه عربي ٠٠ من الثياب إلى الطعام ٠٠ إلى القهوة ٠٠ وحتى الشاي الذي هو مشروب إنجليزي في الأساس ٠٠ أضفتم إليه عشبه سخيفة وزعمتم أنه شاي عربي ٠٠ إذا كنتم فخورين بعروبتكم إلى هذا الحد ٠٠ لماذا جئتم إلى أستراليا .

فوجئت مي بأن ضيفتها مأزومة إلى هذا الحد ٠٠ لو سمعها زوجها الآن لما توانى عن توبيخها وربما أفسد عليهم الحفلة .

ربتت مي على كتف ضيفتها ٠٠ تعالي لكي تفرجي أولادك على الخيل ٠٠ شجعها أولادها على الذهاب ٠٠ نعم يا أمي نحب ذلك دعينا نتفرج على خيل المزرعة .

اصطحبتهم مي إلى الإسطبل ٠٠ استقبلهم مهر أخضر جميل ٠٠ شب على خلفيتيه وصهل .

ربتت مي صدره النافر فهداً ٠٠ أخذ يطوح بعنقه فيتطاير عرفه الجميل يمنة ويسرة ٠٠ حضنت مي عنق الحصان ومسدت عرفه بذراعيها ٠٠ طأطأ الحصان رأسه فقبلته مي في جبينه :

- هذا الحصان ٠٠

قاطعتها ليز :

- لا تقولي عربي أصيل فتكملي علي دائرة الحصار .

ضحكت مي ٠٠ ثم قالت :

- لست قاسية إلى هذا الحد ٠٠ سأبقي لك ثغرة تنفذين منها ٠٠ إنه نصف عربي .

- حتى النصف ثقيل جداً على قلبي .

فكرت مي في نفسها : (لابد أن معاشرة رجل متعصب أحادي النظرة مثل سعيد غيث مدعاة للتوتر الدائم) ٠٠ حين عادت مي كانوا قد انقسموا إلى حلقتين داني مالك وضيفه أيوب وعدد من الضيوف انخرطوا في لعب الطاولة ٠٠ أما دينيس والأب زكريا والشاعرة الأرجنتينية والآخرون فقد استقطبهم النقاش حول مشكلة الشرق الأوسط المستعصية .

وزعت القهوة على الضيوف .

منال عنبر أسرت إلى عبد الحميد وهي منصرفة أنها سوف تزور مكتبه في وسط ملبورن بعد انتهائهم من تقديم وجبة الغذاء لزبائن مطعمهم ٠٠ وأن اللقاء سيبحث أموراً تهم الجالية العربية .

حين انصرفت جلس شقيقها أبو جيمي إلى جوار السلطان وهمس في أذنه :

- من أسبوعين وصل أستراليا وزير ليبي يبحث عن أنصار لإقامة المؤتمر الشعبي الأساسي في ملبورن ٠٠ علمت منال بالموضوع ٠٠ عينك ما تشوف إلا النور .

حملق عبد الحميد مستوضحاً :

– صادتو على القضبان ·· امتحنها في الكتاب الأخضر ·· الله وكيلك سمعتو كرج الميه ·· أختي ذكية ومستعدة إذا فيها رزقه تحفظ الأنسكلوبيديا ·· أخذها معاه على طرابلس الغرب ·· اجتمعت بالقذافي ·· ونالت المراد ·· من رب العباد .

مي و رُلى رابطتا في المطبخ لإدارة العمليات .

قالت رُلى :

– بقي من الزمن شهر واحد .

امتقع وجه مي :

– ألن تغيري رأيك ·· إن ما تنوينه حماقة كبرى ·· ألا تخافين على والدك من الفضيحة ·· تعلمين أنه يعاني من ضعف القلب وأنه أصيب بأزمة في الماضي .

لم تجب رُلى ولكن وجهها شحب كوجوه الموتى ·· انهارت على أقرب مقعد صادفته ·· ظلت في مكانها حتى انتهاء الحفلة وانصراف الجمع .

(١٨)

اســتأجرت منال عنبر مقراً للمؤتمر الشعبي الأساسي – فرع ملبــورن – به قاعة كبرى للاحتفالات ٠٠ وقاعة للطعام ٠٠ ومكتبة ٠٠ ودعت الجالية إلى حفل خطابي يعقبه بوفيه مفتوح .

حضر الحفل لفيف من وجوه الجالية وحتى الذين لم يكن لهم أي اهتمام بالسياسة جاءوا من أجل البوفيه ٠٠ احتل ممثلو التنظيمات العربية والفلسطينية الصفوف الأولى ٠٠ كانوا قد ارتدوا أفخر بزاتهم ٠٠ فهم لا يحظون بلقاء سفير عربي إلا نادراً ٠٠ أكثرهم أناقة كان أبو الصخور ٠٠ قال صهره أبو جيمي :

– يا عيني عليك بهالفراك ٠٠ حسبتك متصرف جبل لبنان .

تمايل أبو الصخور مزهواً وقد ملأ عين نسيبه ربما لأول مرة منذ حظي بهذا النسب .

قامت منال بدور عريف الحفل ٠٠ دعت السفير الليبي لافتتاح المهرجان أبدع السفير في وصف الحدث الكبير ٠٠ نوه بأن عصراً جديداً قد بدأ مع بزوغ فجر أول جماهيرية عظمى في التاريخ المعاصر ٠٠ ثم تلاه أمين عام المؤتمر " أبو الصخور " زوج منال بخطاب رنان لم تخل جملة فيه من خطأ نحوي ٠٠ ولكنه حظي بتصفيق مضمون بمقدار ما تكرر ذكره لاسم القذافي أو اسم جمال عبد الناصر ٠٠ ثم ألقى ممثل عن التنظيمات كلمة القوى الوطنية والتقدمية العربية في الساحة الأسترالية ٠٠ وألقى أبو الرشيد مدير مكتب الإعلام الفلسطيني كلمة منظمة التحرير ٠٠ التي قوطعت عدة مرات بتصفيق حاد .

المفاجأة الحقيقية كانت قصيدة الطفل المعجزة كمال سعيد غيث ٠٠ ألقى كمال قصيدة بالعربية الفصحى ٠٠ لم يرتكب فيها خطأ واحداً ٠٠ لا في النحو ولا في الإلقاء مما أبرز الجهد الذي بذله سعيد في تلقينه ٠٠ دمعت عيون الكثيرين وهو يهتف بعنوان القصيدة : " العربـــي " .

يلقـــى الســـيوف بوجهـــه وبنحـــره
ويقيـــم هامتـــه مقـــام المغفـــــر
ويقول للطـــرف اصطبر لشبا القنـــا
فعقرت ركـــن المجد أن لم تغفـــر
وإذا تراءى شـــخص ضيف مقبـــــل
متســـربل أثـــواب عيش أغبـــــر
أومى إلى الكومـــاء هـــذا طـــارق
نحرتني الأعـــداء إن لـــم تنحـــر

صفق له الحاضرون طويلاً ٠٠ هبت نساء الجالية لاحتضانه وتقبيله .

افتتح السفير البوفيه تناول الضيوف ما اختاروه من الأطعمة وذهبوا إلى موائدهم لالتهامها .

همس قدري في أذن سعيد غيث :

– نحرتني الأعداء إن لم تنحر ؟! ٠٠ ولك إنت إللي بدك نحر على هالقصيدة ٠٠ شو ولد لسه ما دخل المدرسة ٠٠ بتحفظوا لامية الشنفري .

علق أبو الصخور ٠٠ وهو ما زال منتشياً بالنجاح الذي حققه :

– عشنا وسمعنا لامية الشنفرى .

صحح له عمر الشحات :

– أولاً هادي مش لامية ٠٠ ثانياً ليست من شعر الشنفرى .

فغر أبو الصخور فمه ٠٠ وحمد الله أن منال والسفير كانا بعيدين ولم يلاحظا زلة لسانه .

قام إلى الركن حيث اشتبكت زوجته في نقاش مع أحد المرتزقة الذين انتسبوا إلى عضوية المؤتمر وهو يحاول استعراض قدراته السياسية ليرفع سعره أمام السفير ٠٠ النقاش لم يستمر طويلاً ٠٠ استأذن السفير وغادر القاعة ليلحق بطائرته ٠٠ بعد أن اطمأن إلى انطلاقة النظرية الثالثة في سماء أستراليا .

سأل لطفي عواد رئيس النادي العربي الفلسطيني صديقه سعيد غيث :

– وين مرتك يا سعيد ؟

– المرة طلبت الطلاق ٠٠ والمسألة وصلت المحاكم .

هز لطفي عواد رأسه :

– يا سيدي الثالثة نابتة ٠٠ خلينا نجوزك واحدة عربية ٠٠ بركي هالمرة بتظبط .

رد عليه سعيد غيث مشيراً لزوجة لطفي الأسترالية :

– يا سيدي اقرأ هالآية ٠٠٠ ليش ما جوزت حالك واحدة عربية ؟

ثم تابع بأسى :

– والأولاد ؟

– خود الأولاد في حضنك ٠٠ إيش بدها بالأولاد ٠٠ هادي أسترالية ٠٠ وعندها الأولاد ركعتين بلا وضو .

منـــال وحاشيتها بدأوا في توزيـــع بطاقات الانتســـاب على الضيوف لتعبئتها ٠٠ مدت بطاقة على السلطان ٠٠ جاملها السلطان وتناول البطاقة ٠٠ ثم انتحى جانباً ليشرب قهوته ٠٠ لحق به قدري وفي يده بطاقة مماثلة :

– وين هربت ٠٠ بدي أشوفك وانت بتكتب بطاقة الانتساب ٠٠ عشان أتأكد إنو الجالية أصبحت صورة أمينة وصادقة عن الوطن .

حملق فيه السلطان فتابع :

– هيك بصير أبو الصخور رئيسك ٠٠ يعني الأكثر جهلاً يحكم الأكثر ثقافة .

لم يعلق السلطان واستمر في احتساء قهوته .

وضع السلطان فنجانه على المائدة وهم بالمغادرة إلا أنه أبصر أبو الرشيد يخف باتجاهه ٠٠ عانقه وهنأه على الكلمة التي ألقاها في الحفلة ٠٠ ولكن الرجل فاجأه :

– بلا حفلة ٠٠ بلا بطيخ ٠٠ اسمع المفاجأة اللي محضرها لك .

– خير .

– إجت الفرصة اللي كنا بننتظرها من سنين .

– أية فرصة ؟

– الانتخابات ٠٠ أستراليا مقبلة على انتخابات ٠٠ والأحزاب الآن تتوسل أصوات الناخبين .

– ولكن الفلسطينيين لا يتعدون الثلاثين ألفاً .

– الفلسطينيون لديهم توكيل بالحديث نيابة عن مليون ونصف مليون عربي ومسلم في القارة الأسترالية .

– كيف ؟

– وقعت الجمعيات والنوادي والهيئات العربية والإسلامية توكيلاً لوفد فلسطيني بمقابلة رئيس الوزراء وتقديم المطالب المدعومة من كل هؤلاء .

– وماذا سنطلب ؟

– فتح مكتب تمثيل لمنظمة التحرير في كانبرا [1] ٠٠ معونات اقتصادية للشعب الفلسطيني ٠٠ دعم سياسي لقضيته العادلة أو على الأقل تحييد أستراليا والتخفيف من تأييدها الأعمى لإسرائيل .

---

١. كانبرا : العاصمة السياسية لأستراليا .

قفز عبد الحميد غير مصدق نفسه :

– يخرب بيتك على هالفكرة ‥ ومتى سنبدأ ؟

أخرج أبو الرشيد عريضة مصدقة وموقعه :

– هذه العريضة كانت على طاولة رئيس الوزراء قبل يومين ‥ وقد طلب مني إبلاغه بأسماء أعضاء الوفد ‥ هل توافق على الذهاب ‥ كونك رجل أعمال ‥ وتمثل قطاعاً مهماً في نظر الساسة الأسترال .

– بالتأكيد ‥ هل أعرف باقي أسماء الوفد ؟

– عن فكتوريا سيكون لدينا الأستاذ سعيد غيث صاحبك ‥ ولطفي عواد عن التنظيمات السياسية وباقي الوفد من دكاترة الجامعة ‥ الولايات الأخرى سترسل ممثليها ‥ هذه هي المرة الأولى في تاريخ أستراليا ‥ التي يشكل فيها وفد فلسطيني على مستوى القارة لمقابلة رئيس الوزراء .

ودع عبد الحميد صديقه ‥ بحفاوة بالغة .

حينما علمت ملك أوسعته تقبيلاً بحجة تهنئته على هذا المجد الذي ناله :

– مبروك ‥ مبروك ‥ بدك تقابل رئيس الوزارة .

سحبته من يده .

– إلى أين ؟

– يا عيني عليك بدي نقي لك أشيك بدلة ‥ وقميص ‥ وربطة ‥ وخليهم يصوروك مع (البريم منستر) عشان تعطيني نسخة من الصورة بتوقيعك .

❋❋❋

استقبلهم بوب هوك رئيس الوزراء على باب البرلمان ‥ واصطحبهم إلى القاعة المعدة للاجتماع ‥ جلست إلى يمينه سكرتيرته ‥ وإلى يساره مندوب عن وزارة الخارجية ‥ استأذنهم في خلع جاكيتته ‥ فأذنوا له :

– هل تبدأون الحديث ‥ أم أبدأه أنا ؟

وقف سعيد غيث :

– بل نبدأ نحن لو سمحت لنا ٠٠ اختصاراً للوقت .

أشار بيده موافقاً .

– سأستمع بكل عناية .

أخرج سعيد الورقة التي اجتهدوا ليلة الأمس في كتابتها ٠٠ وفيها مقدمة صغيرة تشرح قضية فلسطين ٠٠ ثم مطالب الوفد المدعومة بتأييد مليون ونصف من الناخبين .

أبلى سعيد بلاء حسناً ٠٠ وحينما انتهى من كلمته ٠٠ كانت ملامح رئيس الوزراء المشدودة قد لانت ٠٠ اعتذر لهم عن عدم إلمامه بتفاصيل القضية الفلسطينية ٠٠ وتمنى أن يأتي يوم يصلون فيه إلى حل وسط مع إسرائيل يضمن للشعبين أن يعيشا في وئام وسلام دائمين ٠٠ ووعدهم بالاستجابة لمطالبهم وأن يعمل على أن يتبنى حزب العمال هذه المطالب ٠٠ شكرهم على تكلف مشقة الحضور إليه ٠٠ وقال مازحاً :

– هذا هو الوفد الأسترالي الوحيد الذي يقابلني ولا يطلب مالاً ٠٠ سألبي كل مطالبكم ٠٠ وأرجو أن ينعكس ذلك إيجابياً على علاقة أستراليا بالدول العربية .

وقف رئيس الوزراء ٠٠ فوقفوا جميعاً ٠٠ استدعى المصور الخاص لالتقاط الصور ٠٠ ثم أمر سكرتيرته بأن تفرجهم على البرلمان وأن تقدم لهم الغذاء في المطعم على حسابه .

اعتذر لارتباطه بمواعيد أخرى ٠٠ وغادر القاعة .

عانق بعضهم بعضاً احتفاء بهذا النصر الذي حققوه ومضوا إلى أروقة البرلمان الفخم .

(١٩)

آن الأوان لاقتحام قمة الجبل ٠٠ أعد عبد الحميد الحملة جيداً وبدأت المطاردة ٠٠ سارت الأمور على خير وجه ٠٠ تقدم الحملة وبندقيته على كتفه ٠٠ مصدراً الأوامر ٠٠ بمحاذاته سار علي زيدان يحمل منظاره المكبر ٠٠ ويستكشف المنطقة أمامهم ٠٠ خلفه سار الأولاد يحملون بنادق الصيد ٠٠ رُلى حملت الفاكهة والساندوتشات ٠٠ مي حملت سلة تحتوي زجاجات الماء وعدة الشاي والقهوة .

أخيراً وصلوا إلى المكان الذي سمعوا فيه الرصاصة الأولى ٠٠ سار عبد الحميد باتجاه الموضع الذي جاءت منه الرصاصة .

لم يطل بهم البحث وجدوا آثار نار صغيرة كانت قد أعدت على عجل ٠٠ وقطعا من جلد وعظام الأرنب الذي تم صيده ٠٠ تنفس عبد الحميد الصعداء ٠٠ إذا فلم يكن هو المستهدف كما ظن علي زيدان ٠٠ قال وهو يشير إلى الموقد :

– يبدو أن الصياد كان جائعاً فلم ينتظر العودة بطريدته إلى البيت .

جلسوا وأشعلوا نارهم ٠٠ وبدأوا في إعداد قهوتهم .

أراد عبد الحميد أن يعود أدراجه ٠٠ ولكن علي زيدان أصر على المتابعة

– ربما كان هذا الموقد لشخص آخر ٠٠ غير الذي أطلق علينا الرصاص ٠٠ وما دمنا هنا فلن نعود قبل أن نتأكد ٠٠

تابعوا طريقهم إلى أعلى الجبل دون حماس وقبل أن يصلوا إلى القمة ٠٠ سمعوا الرصاص يطلق باتجاههم ٠٠ هذه المرة لم تكن المسألة ضرباً من الظنون مرت الرصاصات فوق رؤوسهم ٠٠ انبطحوا أرضاً ٠٠ حتى توقف إطلاق الرصاص

أمر عبد الحميد البنتين والأولاد بالعودة ٠٠ أشهر بندقيته ٠٠ حمل صديقه البندقية الأخرى ٠٠ وواصلا الصعود ٠٠ البنات انصعن للأمر ٠٠ وسارعن بالعودة .

في الطريق كان لديهما الكثير من الوقت للحديث ٠٠ سألت رُلى صديقتها مي :

– أما زال شاهين يضايقك ؟

– نعم ٠٠ كلما صادفني وحدي ٠٠ فهو حريص على عدم إثارة الشكوك حولنا ويحسب لناجي ألف حساب .

– هل تنوين إطلاع ناجي على مضايقاته ؟

– كلا ٠٠ ما دام الأمر في حدود اللياقة ٠٠ فإذا خرج عن طوره ٠٠ سأفكر في اللجوء إليك أولاً لتحذيره ثم لوالده قبل أن يعلم أحدٌ من عائلتي .

– أنت عاقلة ٠٠ عاقلة أكثر مما يجب .

أجابت مي وهي تغالب الضحك :

– وأنت مجنونة ٠٠ مجنونة أكثر مما يجب .

الأولاد لم ينصاعوا ٠٠ اختبأوا خلف جذوع الأشجار ٠٠ تعقبوا الأبوين دون أن يشعرا بهما ٠٠ توقف إطلاق النار تماماً ٠٠ وبدأت نسمات العصر الرقيقة تداعب الوجوه .

أشرف عبد الحميد وصديقه على القمة ٠٠ لم يجدا شيئاً يستحق الذكر ٠٠ أطلا على السفح الآخر من الجبل ٠٠ كان منظراً خلاباً يأخذ بالألباب ٠٠ قبل أن يعلقا بكلمة سمعا صوتاً مبحوحاً يقول :

– ألقيا السلاح ٠٠ واستديرا نحوي .

تردد علي زيدان في إلقاء سلاحه ولكن عبد الحميد أمره أن يفعل .

حينما استدارا ٠٠ أبصرا عجوزاً طاعناً في السن أشيب الشعر واللحية ٠٠ مهلهل الثياب ٠٠ أمرهما بالتقدم نحوه ٠٠ وحين فعلا تأملهما ٠٠ ثم أغـرق فـي الضحك .

– تبدوان رجلي أعمال محترمين ٠٠ ولستما صعلوكين يحترفان الاعتداء علـى مناطق الصيد ٠٠ هل أخفتكما حتى الموت ؟؟

قهقه الرجل حتى فقد اتزانه وسقطت من يده البندقية ٠٠ تناولها ثانيـة ٠٠ ثم تابع .

– ما زال روبنسن قادراً على إخافة الدخلاء ٠٠ الذين يتسللون إلى منطقته .

أشار إلى عشة مبنية من صخور الجبل ومغطاة بجذوع الأشجار .

– هل تريدان الدخول ٠٠ أم نجلس هنا ؟

لم يحيرا جواباً .

أشار إلى منبسط معشب على حافة الجبل ٠٠ تفضلا بالجلوس ٠٠ لـيس لدي ما أضيفكم به ٠٠ سوى الحديث إليكم ٠٠ وضع بندقيته على ركبتيه ٠٠ تقدم عبد الحميد ٠٠ وجلس أمامه ٠٠ جلس علي زيدان بجانب صديقه .

سأله عبد الحميد :

– ما اسمك ؟

– روبنسن .

– عرفت ذلك من حديثك إلى نفسك قبل قليل ٠٠ أريد اسمك بالكامل ٠٠ وأرجـو ألا تدعي أنك روبنسن كروزو .

صاح العجوز :

– اطمئن فلست أعرف هذا الذي أشرت إليه ٠٠ أنا روبنسن سميث ٠٠ وينـاديني الجميع بلقبي الذي اشتهرت به (سواج مان) .

نظر عبد الحميد إلى علي زيدان مستنجداً :

قال علي زيدان :

– اللقب معروف في الفلكلور الأسترالي ويعني (رجل الغابة) وهو الذي يعتـــزل داخل الغابة بحثاً عن الطرائد أو الذهب أو المعادن ٠٠ ولا يحتك بالعالم الخارجي إلا نادراً ٠٠ نوع من الطرزان الأسترالي .

سأل عبد الحميد :

– لماذا أنت هنا ؟

قال الرجل وهو يعتدل في جلسته ٠٠ ويضع يده على البندقية :

– أنا الذي يجب أن أســـأل ٠٠ هذا الجبل كله لي ٠٠ امتلك امتياز صيد الثعالـــب فيه ٠٠ أعطاني الامتياز مالك هذه الناحية ٠٠ (ذي لورد أوف لاند) مستر إدجار ألن بيكر .

تأمله عبد الحميد كما يتأمل معتوهاً :

– منذ متى أعطاك هذا الامتياز ؟

– لا أعرف كم عاماً مضى على ذلك ٠٠ فأيامي هنا متشابهة كثيـــراً ٠٠ الأيـــام المتشابهة لا تستحق أن تحصى .

– هل تذكر العام الذي منحت فيه هذا الامتياز ؟

– نعم بالتأكيد ٠٠ كان ذلك العام الذي توفيت فيه آخر زوجاتي عام ١٩٦٠ ٠٠ ثم تابع وهو يفكر بعمق ٠٠ ربما كان ذلك قبل سبع سنوات أو عشرة لا أدري .

قال عبد الحميد يهاوده :

– أو عشرين ٠٠ أو ثلاثين .

تردد الرجل في الموافقة ٠٠ انعقد حاجباه الأشيبان ٠٠ ولمع المكـــر فـــي عينيه ٠٠ رانت فترة من الصمت ٠٠ تابع بعدها عبد الحميد :

– عشرون عاماً مرت ٠٠ عشرون عاماً بالتمام والكمال ٠٠ تعاقب فيهـــا ثلاثـــة لوردات على الأقل ٠٠ مالكين لهذه الأرض .

حدق فيهما روبنسن كمن يحدق في رجال سقطوا عليه من كوكب آخر .

قال علي زيدان :

- آخر هؤلاء اللوردات ٠٠ الماثل أمامك يا سيد روبنسن .

أشار إلى عبد الحميد وتابع :

- لورد أوف لاند عبد الحميد السلطان ٠٠ هيا قبل يد سيدك اللورد ٠٠ واعتذر له عما بدر منك أيها الحيوان المتوحش ٠٠ حتى لا يأمر كلابه بتمزيق جسدك .

أراد علي زيدان أن ينهض لإنهاء هذا الموقف السخيف ٠٠ ولكن العجوز وجه نحوه بندقيته:

- أنا لا أصدق كلمة واحدة من كلامك .

كان الأولاد قد وصلوا القمة من الجهة الأخرى وتابعوا ما يحدث ٠٠ تقدم ناجي بهدوء ووضع فوهة بندقيته في رأس العجوز :

- لا تتحرك وإلا طيرت رأسك .

إنقض عليه شاهين وجرده من بندقيته وساقه إلى شجرة قريبة حيث أحكم فادي وثاقه .

قام علي زيدان ليأخذ دورة حول المكان ٠٠ لاحظ لأول مرة المدرجات المعدة تحت قمة الجبل ٠٠ والمزروعة بنبات يشبه الملوخية ٠٠ تناول نبتة منها وقال لصاحبه :

- ماريجوانا ٠٠ العجوز يعمل لحساب عصابة استغلت امتياز الصيد الذي يحمله لتطفيش الزوار غير المرغوبين ٠٠ حتى لا ينكشف أمرهم .

قال فادي :

- علينا الآن إبلاغ الشرطة ٠٠ سيقومون بتمشيط المكان ٠٠ وغداً نستعيد الجبل المغتصب بعد أن يودع روبنسن والعصابة سجن ملبورن .

(٢٠)

بكر عبد الحميد في النزول من مكتبه ليتمشى قليلاً في الشوارع المزدحمة ويستمتع بتأمل واجهات المتاجر الكبرى .

هجم الصيف مبكراً ٠٠ وارتفعت درجات الحرارة على غير عادتها في مثل هذا الوقت من السنة ٠٠ حرص عبد الحميد على السير في الظل ٠٠ لاحظ أن النساء قد تخففن كثيراً من ملابسهن بعضهن حملن على أيديهن ما خلعنه تواً أو وضعنه جانباً على المقاعد التي استرخين عليها .

العارضات خلف الواجهات الزجاجية ٠٠ ارتدين أحدث ملابس البحر ٠٠ لاحظ أن ورقة التوت قد تضاءلت إلى نصف حجمها السابق ٠٠ وأنهم اكتفوا بتثبيتها في أماكنها بخيوط لا تكاد ترى ٠٠ الصدر لم يعد مغطى بأي شئ في أغلب الواجهات ٠٠ قال في سره : سيكون صيفاً ساخناً جداً الله يستر على الولايا .

وصل مطعم منال عنبر ٠٠ كان ابن أخيها جيمي قد اشترى المطعم بثمن بخس ٠٠ واحتل مكانة أبو الصخور أمام وجاق النار ٠٠ بينما احتلت صديقته الأسبانية الأصل مكانة منال على " الكاونتر " .

ألقى عبد الحميد التحية ٠٠ تناول سندويشة سفلاكي ٠٠ وزجاجة كولا ودلف إلى الداخل ٠٠ كان أبو جيمي يفترس أحد الزبائن العرب .

– بقى لما شكري عشو اغتال الملك عبد الله ٠٠ كان نازل عندي في البيت ٠٠ قبل الحادثة بليلة ٠٠ قلت لو يا شكري بلاها ٠٠ هوه الحاج أمين الحسيني بدو يقتل مين ويترك مين ٠٠ ما كلهم بستحقوا القتل من جميل مردم بيك [١] ٠٠ إلى أحمد حميد الدين [٢] .

حياهم عبد الحميد وجلس يقضم شطيرته ٠٠ ثم علق :

- حاجي تحكي في الماضي يا أبو جيمي .

- بدك نحكي في الحاضر .. بأمرك يا سلطان .. امبارح بالليل هجموا على مقر المؤتمر الشعبي الأساسي في ملبورن وكنسوه .. أجهزة الكمبيوتر والفيديو .. والتلفزيون .. والخزنة بالعشرين ألف دولار يللي كانوا فيها .

توقف السلطان عن مضغ شطيرته .. ثم سأل :

- قولك مين بعمل عمله مثل هيك ؟

- منّك عارف ؟! الصهاينة طبعاً .

ثم مال على أذن السلطان وهمس :

- يكون بدك مثل باقي الجالية .. تتهم أبو الصخور وأختي منال بتدبير الحكاية ؟

هز السلطان طرف معطفه مستنكراً :

- أعوذ بالله .

ثم تابع :

- إيش مصلحة الصهاينة بهيك شغله ؟

تابع أبو جيمي بحماسة :

- إنت ما بتعرف إن النظرية الثالثة يا للي بالكتاب الأخضر .. هي أكبر خطر بيهدد الصهيونية .. كيف بدك الصهاينة يناموا .

أجاب السلطان ساهماً :

- معاك حق .

---

١. **جميـــل مـــــردم : رئيس وزراء سوريا سنة ١٩٤٨م .**

٢. **أحمد حميد الدين : إمام اليمن .**

– دخلك ليش ما انتسبت للمؤتمر يا سلطان ٠٠ أي منال عم تتحرقص على انتسابك اتحرقص .

بدأ الفرســـان في الوصـــول ٠٠ لم يجد عبد الحميد في نفســـه الرغبة بالبقاء ٠٠ استأذنهم وعاد إلى مكتبه ستكون ملك وحدها الآن ٠٠ وسوف تسر بعودته مبكراً من فسحة الغذاء ٠٠ وستحرص على الاستلقاء على الكنبة المواجهة له ٠٠ ليكحل عينيه بالنظر إلى سيقانها الطويلة ٠٠ وركبتيها وما انحسرت عنه تنورتها التي مازالت تقصر يوماً بعد يوم .

حين وصل إلى المكتب فوجئ بابنته مي تجلس في انتظاره ٠٠ أغلقت باب المكتب عليهما وأجهشت بالبكاء ٠٠ كانت تهتز مثل قصبة في الريح ٠٠ ظن عبد الحميد أن أحداً من عائلته قد أصابه مكروه ٠٠ ظل يستنطقها جلية الأمر حتى باحت له بالسر الأعظم :

– رُلى ستهرب الليلة مع صديقها الأسترالي .

ضرب عبد الحميد كفاً بكف غير مصدق .

– رُلى بنت الدكتور علي زيدان ؟ ٠٠ مستحيل .

توسل إليها .

– قولي كلاماً غير هذا .

– أرجوك يا أبي ٠٠ أنا متأكدة .

مسحت مي دموعها ٠٠ كانت تنتفض مثل قشة في الريح .

– والتربيـــة ؟! ٠٠ والقدوة الحسنة ؟!٠٠ ربما كانت تهول عليك أو تمزح ٠٠ ربما ٠٠٠

– كلا يا أبي ٠٠ لقد ودعتني على باب الكلية ٠٠ وعليك أن تتصرف بسرعة حتى لا يحاسبني ضميري مدى الحياة ٠٠ لو حدث لها شئ أو لأحد من عائلتها ٠٠ فسوف أحس بالذنب حتى أموت .

- اتصلي بها ٠٠ حاولي أن توقفيها على الأقل حتى نتدبر الأمر مع والديها بالعقل والمنطق .

قامت مي إلى الهاتف واتصلت ببيت على زيدان ٠٠ ردت عليها أم رُلى بهدوء من لا يعرف شيئاً :

- جاءت رُلى إلى البيت ٠٠ أخذت بعض حاجيتها وغادرت مسرعة ٠٠ لم تقل كلمة واحدة ٠٠ حسبناها عائدة إلى الكلية لمواصلة امتحانها .

ضرب عبد الحميد كفاً بكف :

- نفذ السهم ٠٠ الله يلطف بعلي زيدان وعائلته ٠٠ هيا يا ابنتي إلى السيارة لندركهم قبل أن يقع المحذور .

لم تكف مي عن البكاء طوال الطريق ٠٠ روت لوالدها ما تعرفه عن المأساة الوشيكة الوقوع وصلوا إلى بيت على زيدان ٠٠ كان كل شئ هادئاً ٠٠ الأولاد منصرفون إلى المذاكرة ٠٠ علي وزوجته يتابعون برامج التلفزيون ٠٠ لم يفتح الله على عبد الحميد وابنته بكلمة واحدة ٠٠ فجلسا صامتين لا يعرف أحدهما من أين يبدأ .

شربا قهوتهما أو تظاهرا بشربها ٠٠ رن جرس الهاتف ٠٠ ذهبت زوجة علي للرد عليه ٠٠ خفض علي صوت التلفاز ليتيح لزوجته التقاط المكالمة .

سقطت السماعة من يدهـــا ٠٠ تهالكت على المقعـــد المجاور دون أن تنطق ٠٠ حملقت عيناها في زوجها وفيهما صرخة استغاثة ٠٠ تقدم علي زيدان إلى الهاتف .

التقط السماعة عن الأرض وتلقى وعده .

نهض عبد الحميد ٠٠ وقف خلف صديقه ٠٠ وضع يده على كتفه مشجعاً :

- ما الأمر ؟ ٠٠ ما الذي يجري ؟

ناوله علي زيدان سماعة الهاتف :

– إذا فهمت ما تقوله هذه الفتاة التي تدعي أنها صديقة رُلى فاشرح الأمر لي ·· أنا لم أعد قادراً على الفهم أو الاستيعاب .

كان صوت الفتاة على الطرف الآخر مرتعشاً يردد عبارات مقتضبة :

– سيارتها في آرثر سيت وفيها رسالة مسجلة على كاسيت ·· ورسالة مكتوبة بخط اليد تشرح لكم كل شئ ·· انقطع حديث الفتاة .

بدأ علي زيدان يستعد لمواجهة الطعنة القادمة ·· تحامل على نفسه ·· استند إلى ذراع صديقه عبد الحميد ·· استقلا السيارة التي طارت بهما إلى آرثر سيت ·· وجدا سيارة رُلى ·· قرآ الرسالة بتمعن :

– حان وقت الوداع ·· لاتحزنوا علي فسوف أكون سعيدة جداً ·· فقط انسوني وعيشوا حياتكم بدوني عودوا من حيث أتيتم فهذه البلاد لا تناسبكم ·· لا تعرضوا باقي أولادكم للتجربة التي عشتها ·· قولو للناس أنني غرقت ومت موتة طبيعية الله رزقكم خمسة أولاد فلا تهملوهم من أجلي ·· لا تحاولوا أن تبحثوا عني ·· إنني ذهبت بدون عودة ·· كنت أتمنى أن تكون حياتي أفضل من ذلك ولكنني لم أنجح في إتمام هذا الحلم ·· أنا لا أريد أن ألومكم ·· أنا لا ألوم غير نفسي ·· في السيارة شريط يشرح لكم كل ظروفي ·· سامحوني ·· الوداع .

انهار علي زيدان على جانب الطريق وأخذ يبكي بحرقة دون أن يتفوه بكلمة واحدة ·· وضع عبد الحميد الشريط في مسجل السيارة وأداره ·· سمعا باهتمام كل كلمة .

لماذا لم تهرب مع صديقها وفضلت الانتحار ؟! ·· لعلها لم تنتحر وأخرجت هذه التمثيلية الرديئة لكي يكف أهلها عن ملاحقتها ·· على جميع الأحوال لابد من الاستعانة بالشرطة للبحث عنها قبل أن يحل الظلام .

توجه عبد الحميد بصاحبه إلى أقرب مركز للشرطة ·· بلغا الضابط بما يعرفانه ·· سلماه الرسالة التي تقول فيها أنها انتحرت .

عاد بهما الضابط إلى موقع السيارة في آرثر سيت ٠٠ مع مجموعة من الرجال والكلاب المتخصصة في البحث عن الضحايا ٠٠ طائرة هليوكابتر ظهرت في الأفق تمسح المنحدر الصخري من قمة آرثر سيت إلى الهوة الفاغرة تحتها حتى سطح المحيط ٠٠ حين خيم الظلام استعانت المروحية بالكشافات ٠٠ لكن شيئاً لم يظهر ٠٠ قضى عبد الحميد ليلة طويلة قاسية إلى جانب صديقه المفجوع ٠٠ في الصبح عادا إلى بيت علي زيدان ٠٠ كان الأطفال يجهشون بالبكاء ٠٠ أمهم تخشبت في مقعدها ذاهلة عما يجري ٠٠ حاولت زوجة عبد الحميد إطعامهم ٠٠ رفضوا تناول أي شئ .

جاء ضابط الشرطة وقال لهم :

– أوقفنا البحث ٠٠ اتصلت رُلى بنا تليفونياً ٠٠ إنها بخير ولكنها تريد أن تضمن الشرطة عدم ملاحقتكم لها ٠٠ تعرفون أنها بالغة الرشد ٠٠ وحرة في اتخاذ القرار الذي يلائم حياتها ٠٠ واجبنا أن نحميها منكم .

ضرب علي كفاً بكف :

– هكذا إذن .

ثم التفت إلى زوجته :

– ابنتي تلجأ للشرطة لتحميها مني .

تناول عبد الحميد الورقة من الضابط ٠٠ وقدمها لعلي محاولاً إنهاء الموقف :

– وقع هنا .

وقع الدكتور علي زيدان الورقة وهو راكع على ركبتيه ٠٠ تناولها الضابط الفظ وانصرف وهو يتمتم :

– شغلتم فرقة الإنقاذ ليلة كاملة ٠٠ من أجل بيان كاذب .

ثم همس لنفسه وهو يصر على أسنانه :

- ووجز [1] .

حين اختفت سيارة الضابط حاول عبد الحميد أن ينهض صديقه ٠٠ الرجل كان منهاراً وفي غاية الإعياء ٠٠ جر أقدامه بصعوبة بالغة حتى وصل إلى الفراش مدده عبد الحميد واتصل بالطبيب ٠٠ حقنه الطبيب بحقنة عاجلة ٠٠ أمر بنقله إلى المستشفى قبل أن تتفاقم الأزمة القلبية التي بدأت بوادرها في الظهور .

نقل إلى المستشفى ٠٠ في سيارة إسعاف خاصة ٠٠ لم يكف علي زيدان عن الهلوسة طوال الطريق ٠٠ كان فريسة كوابيس مرعبة حلت به ٠٠ أحياناً يحاول إعادة ترتيب الحوادث حسب وقوعها ٠٠ وأحياناً يحاول أن يمنطق العبث الذي وجد نفسه فيه .

ظل يهلوس (عودوا من حيث أتيتم فهذه البلاد لا تناسبكم ٠٠ لا تعرضوا باقي أولادكم للتجربة التي عشتها) .

هذا هو الحل الذي فرضته علينا زرقاء اليمامة ٠٠ أن نرتد إلى الوراء ٠٠ لم تحدد المسافة التي علينا أن نرتدها ٠٠ ولا العصر الذي يليق بنا أن نحل فيه ٠٠ ما قولك يا عبد الحميد .

شد على يد صديقه مثل غريق يتعلق بقشة ٠٠ ثم أعول :

- هل أرتد إلى العصر الحجري ٠٠ أخطط جسدي وألبس تاجاً من الريش ٠٠ وأثقالاً من التمائم وارقص حتى يصيبني الدوار ٠٠ فأسقط مغشياً علي ٠٠ أم إلى العصـــر الجاهلي ٠٠ أقودها ضحية آدمية إلى صنم في الكعبة ٠٠ وألطخ بدمائها الدنيا وما فيها ٠٠ ثم أعمد إلى كل وليدة لي بعدها ٠٠ فأدسها في التراب ٠٠ موءودة يسألها الله يوم القيامة .

---

١. ووجـــز : شتيمة يطلقها الأسترال القدامى على المهاجرين الجدد ٠٠ وهي تعني في الغالب (متخلفون) .

لعلها أرادت أن تعيدني إلى صدر الإسلام ٠٠ لكي أحكم فيها بالكتاب والسنة ٠٠ وأقيم عليها حد الردة ٠٠ لعل ما يناسبها أكثر أن تعيدني إلى عصر الأتراك ٠٠ فأرضى بما حل بي من الظلم والهـوان ٠٠ وأبكي حتى ينفطر لي قلب شيخ الطريقة ٠٠ فينهرني وهو يردد (يا بني القدر خيره وشره من الله تعالى) .

انخرط علي زيدان في نوبة بكاء حاده وجسده ينتفض ٠٠ ربت عبد الحميد على ذراعه والدموع في عينيه ٠٠ دون أن يسعفه لسانه بكلمة واحدة .

عاد عبد الحميد إلى البيت مهدوداً مفعماً باليأس والهزيمة ٠٠ وضع رأسه على المخدة ونام كالميت ٠٠ لم يعرف كم مر عليه وهو نائم ٠٠ استيقظ على جرس الهاتف ٠٠ ود أن لو أحداً غيره رفع سماعة الهاتف ٠٠ ولكن أحداً لم يفعل ذلك ٠٠ حتى كف الهاتف عن الرنين ٠٠ كان الذهول ما زال يسيطر عليهم .

ثريا مشغولة بالتخفيف عن ابنتها التي انهارت بفعل الصدمة ٠٠ الولدان حاولا تبادل الحديث ولكن الهوة بينهما أصبحت سحيقة العمق لا يمكن جسرها ٠٠ قال ناجي :

– أرجو أن لا تعرضنا أختنا مي لمثل هذه التجربة القاسية ٠٠ الحمد لله أنها فتاة عاقلة .

رد فادي بتحفز :

– لا تعول عليها كثيراً ٠٠ ما أظنها ستصمد في اختبار سقط فيه الرجال ٠٠ حتى أنت يا (مونك) صار لك صديقة أسترالية ٠٠ لا أعرف المدى الذي وصلت إليه علاقتكما ٠٠ الحكاية تبـدأ دائماً بصداقة بريئة ٠٠ وكل صديق هو مشـروع عشيق ٠٠ والمرأة عادة تختار الرجل الذي يختارها بغض النظر عن جنسه وأصله وفصله ٠٠

– أنت لم تعد عربياً ٠٠ ولا مسلماً ٠٠ أنت وغد حقير .

- بل قل لم أعد أحمق ٠٠ فكوني عربياً لا يلغي أية صفة أخرى من صفاتي كذكر بالغ ٠٠ في مجتمع يتيح للذكور والإناث تلبية رغباتهم الجنسية بلا حدود .

- والدين ٠٠ ألا يشكل وازعاً كافياً لك ؟

- إذا كنت تعني بالدين الإسـلام ٠٠ فالإسـلام يبيح لي أن أتزوج أربع نساء حرائر ٠٠ وأن أمتلك ما أشاء من الجواري إذا أردت ٠٠ فهل وفرتم ذلك لي ٠٠ زوجوني زوجة واحدة ٠٠ وهبوا لي ثلاث جوار فقط ٠٠ وأنا أسامحكم بالباقي ٠٠ وأعدكم بأن أكون مسلماً صالحاً ٠٠ وألا أقع في الفحشاء والمنكر .

- أنت ساقط ولا فائدة ترجى منك .

- وأنت مغفل يختبئ خلف أصبعه لكي لا يرى ما هو أبعد منه .

وضع فادي سماعتي المذياع الصغير على أذنيه وقام يرقص مع اللحن في طريقه إلى غرفته

وضع ناجي المخدة على رأسه وحاول أن يستسلم للنوم .

بحثت زوجة عبد الحميد عن الخادمة فلم تجدها ٠٠ قال لها فادي حين سألته عنها :

- لابد أنها هرعت إلى كوخ باري ٠٠ لكي تنقل إليه ما يحدث للسادة الذين حسبوا أنهم صنف مميز من البشر ٠٠ ممنية النفس بليلة من كعب الدست ٠٠ في أحضان ذلك المصارع ٠٠ الذي أصبح جسدها حلبته الوحيدة .

أعاد السماعات إلى أذنيه .

نهرته أمه :

- أنت سليط اللسان وقليل التربية .

لم يسمع ما قالته ٠٠ ولكنه قرأه على ملامحها الغاضبة .

(٢١)

أسلم الربيع لواءه للصيف ٠٠ لوحت أشعة الشمس ذوائب الشجر ٠٠ استقلت كل شجرة بلونها المميز ٠٠ وأعلنت مهرجانها الخاص ٠٠ تراجعت الخضرة بدرجاتها الفاتحة والداكنة ٠٠ لتفسح المجال لألوان الكرنفال القادم .

تأمل عبد الحميد أشجار مزرعته وهو يهبط المنحدر من الهضبة المقام عليها قصره ٠٠ إلى الحظائر في السفح ٠٠ هذه الشجرة بنية بلون الشيكولاته ٠٠ وهذه حمراء بلون الطربوش البابوري أما هذه فهي صفراء بلون الذهب ٠٠ عاد يتأمل سفوح التلال المطلة على المزرعة ويتابع تدرج الخضرة في مربعاتها المتجاورة :

هذه المربعـــات أول شئ لفت انتباهه حين أطـــل من الطائـــرة ليلقـــي نظرة على " أستراليا " منفاه الجديد .

قال لزوجته ساخراً :

– أنظري من النافذة ٠٠ لقد فرشوا لك الأرض بالسجاجيد العجمية .

فيما بعد اكتشـــف عبد الحميد أن هذه المربعـــات هي حقول مقسمة للمرعى ٠٠ وأن لون كل مربع يحدده تاريخ مرور الأبقار فيه ٠٠ الحقول المرعية حديثاً يميل لونها إلى الأخضر الفاتح ٠٠ أما التي مر عليها شهر فهي خضراء داكنة الخضرة ٠٠ المربعات الصفراء حقول لم يتم رعيها وتركت أعشابها حتى تجف علفاً للأبقار في شهور الشتاء .

أخرجه من تأملاته وصول باري لاستقباله ٠٠ سأله ساهماً :

– هل ساعدك الأولاد في جمع القطيع ؟

– نعم يا سيدي ٠٠ ولن يستغرق تطعيمه وقتاً طويلاً ٠٠ فكل شئ قد أعد جيداً .

وصلوا إلى الحظائر ٠٠ تفقد عبد الحميد أبقاره فوجدها تفيض بالصحة والعافية ٠٠ بعضها كانت حاملاً في شهور حملها الأخيرة ٠٠ وبعضها منهمكة في إرضاع ولائدها ٠٠ جلودها لامعة ٠٠ عيونها واسعة ٠٠ صافية الأديم ٠٠ واصلت الأبقار اجترارها ٠٠ دون أن تلقى بالاً لهم .

أيقن عبد الحميد أن أرباح المزرعة ستغطي خسائر المكتب التي بدت له أكيدة في تلك السنة ٠٠ انشرح صدره ٠٠ أطلق عقيرته بالغناء ٠٠ غنى لأبقاره أغنية من أغاني الرعاة في بلاده.

- روحـــت تجتـــــرِّ

وعلى خرطومها عجاج البرِّ

أكمل أغنيته ٠٠ وهم يتضاحكون حوله ٠٠ أشار إلى باري :

- بعد التطعيم يتم الفرز ٠٠ العجول الجاهزة للبيع توضع في الحلقة ٠٠ حتى يتم شحنها إلى السوق والإناث تضم للقطيع للإنجاب .

تسلم باري مهمة الحقن تحت الجلد ٠٠ وتسلم فادي الدهون فوق الجلد ٠٠ أما ناجي فقد اختصوه بجرعـــات الفم ٠٠ أحـــد العجول استطاع أن يفلت من الطوق ٠٠ اجتاح باري وألقاه أرضاً ٠٠ دفع بوابة الحظيرة ٠٠ لم يكن إغلاقها محكماً فانفتحت أمامه ٠٠ أسلم سيقانه للريح ٠٠ دار دورة كاملة في السفح ٠٠ ثم عاد يخور على سياج الحظيرة منتظراً باقي القطيع .

تأمل عبد الحميد كتل اللحم وهي تتماوج تحت جلده اللامع ٠٠ أنشد من شعر الحطيئة :

- وخرَّت نحـــوص ذات جحـــش فتيـــــة

قد اكتنـــزت لحمـــاً وقد طبقت شـــحماً

فيـــا بشـــره إذ جـــرها نحـــو أهلـــــه

ويا بشـــرهم لمـــا رأوا كلمها يدمـــى

ثم التفت إلى باري :

– سنأخذ بثأرك يا باري ٠٠ لا داعي لتطعيم هذا العجل ٠٠ في الغد استدع الجزار التركي لذبحه وتقطيعه ٠٠ نوزع نصفه على الأصدقاء ٠٠ ونملأ ثلاجة المزرعة بنصفه الآخر ٠٠ ثم أشار إلى مي :

– قولي لأمك أن تبدأ برأسه ٠٠ أريد رأس هذا الشرير على طبق من فتة الخل والثوم ٠٠ يا له من رأس كامل الدسم .

استفظع أولاده حديثه عن رأس العجل ٠٠ وهو مازال حياً ٠٠ قالت ابنته مي :

– عجبت لك يا أبي ٠٠كيف تكون الشيء وضده في آن واحد ٠٠شاعر٠٠وجزار.

غمغم عبد الحميد ٠٠ لو كان هذا هو التناقض الوحيد لكنت أعظم رجل في العالم ٠٠ تذكر أن كونه زوجاً مثالياً ٠٠ وأباً مثالياً ٠٠ لم يمنعه من مجاراة ملك وتهيئة الطريق أمام ألاعيبها .

سأل نفسه ٠٠ هل تجمع المقدس والمدنس ؟! ٠٠ ثم ردد الآية " ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه " .

تأملت زوجة عبد الحميد خادمتها كريستي وهي تعمل بهمة ونشاط في إعداد القهوة والبسكويت لحملها إلى الحظائر :

– هذه الخادمة صمدت لدينا ٠٠ الخادمات السابقات لم يعمرن طويلاً ٠٠ آخرهن كانت تشارلي هربت بليل ٠٠ بعد أن حرضتها زوجة سعيد غيث ٠٠ قالت لها : (لم أر في حياتي بيتاً كهذا إنه ليس بيتاً ولا فندقاً ٠٠ ولا حتى سوق أحد ٠٠ إنه حديقة عامه بها مطعم مفتوح للخدمة المجانية طوال ساعات الليل والنهار ٠٠ هؤلاء العرب قوم غرباء جداً ٠٠ ينفقون ثلث اليوم في إعداد الطعام ٠٠ وثلثه الثاني في التهامه ٠٠ والثلث الباقي لتنظيف ما خلفته الغزوة الهمجية في المطبخ وقاعة الطعام ٠٠ والبيت كله) .

استدارت الخادمة بعد أن انتهت من إعداد القهوة :

– سيدتي ٠٠ سأنقل ثيابي إلى كوخ باري ٠٠ سنعيش معاً .

لم يكن الطلب مفاجئاً لثريا ٠٠ فقد اكتشفت عدة مرات أن خادمتها تقضي الليل في كوخ باري ٠٠ وآثرت أن تلزم الصمت ٠٠ هذه المرة الأمر مختلف ٠٠ قالت لها معاتبة :

– استسلمت له دون مقاومة تذكر ؟!

– ولماذا أقاومه ؟

– قد تجبرينه على الزواج .

– ومن قال لك أنني أود الزواج بهذا الأعرج الوغد .

– لكي ترزقي بطفل يملأ عليك حياتك .

– ويسلبني حريتي ٠٠ إنجاب الطفل ٠٠ هو أن تصبحي ملكاً لشيطان صغير ٠٠ يستعبدك طوال ما بقي لك من العمر .

– هذا هو فهمك للأمومة .

– اسمعي يا سيدتي ٠٠ أنا لا أذهب إلى الكنيسة ٠٠ ولا أحب أن تأتي الكنيسة إلى المكان الذي أعمل فيه .

فوجئت ثريا بردة فعل خادمتها ٠٠ إنها تريد أن تعيش مع باري مساكنة وليس زواجاً شرعياً ٠٠ فهل تستطيع هي أو زوجها الاعتراض على ذلك ٠٠ إن معنى الاعتراض ٠٠ أن تفقد خادمة جيدة ٠٠ وأن يفقد زوجها مزارعاً ممتازاً .

هزت ثريا رأسها دون أن تتفوه بكلمة .

حملت كريستي القهوة٠٠وانطلقت إلى الحظائر٠٠حين رآها باري هتف :

- بريك بويز [1] .

وضعوا أدوات العمل جانباً ٠٠ غسلوا أيديهم وتحلقوا حول كريستي ٠٠ تناولوا فناجين النسكافيه بالحليب ٠٠ وأخذوا يرتشفونها بتلذذ ٠٠ لاحت في مدخل المزرعة سيارة شرطة فتعوذ عبد الحميد .

وقفت السيارة أمام الحظيرة ٠٠ ونزل منها الشرطي نفسه ٠٠ الذي أخذ عليهم التعهد يوم هربت رُلى ٠٠ رآه عبد الحميد واقفاً أمامه فبرطم :

- أنت مرة ثانية يا وجه النحس .

ثم أكمل بالإنجليزية ٠٠

- ما الذي أستطيع عمله لك ؟

- لدينا إشارة بتسليمكم الجثة .

قفز كالملدوغ :

- هل قتلها ذلك النذل الذي هربت معه ؟! زعمتم لنا أنها في مكان آمن ٠٠ وأخذتم علينا تعهداً بعدم التعرض لها .

قاطعه صوت الشرطي الفظ :

- لا يعنيني ما حدث للفتاة ٠٠ ولا أريد أن أعرف إن كانت حية أو ميتة .

أعول عبد الحميد بصبر نافذ :

- والجثة ؟!

- الجثة لرجل على ما أعتقد .

صاح السلطان وهو يتميز من الغيظ :

- يبدو أنه ليس لديك أحد غيري ٠٠ لكي تمارس عليه ساديتك ٠٠ نحن لم نفقد أي رجل في هذا البيت ٠٠ وأنا متعب ٠٠ أرجوك أن تكف عن مزاحك السخيف .

---

١. بريك بويز : فسحة يا أولاد .

تهيأ له أن الشرطي الوقح ثمل في أحد البارات ٠٠ وهو يتسلى بإزعاجه .

لم يكترث الشرطي بتأففه ٠٠ وتابع :

- الجثة لرجل اسمه سعيد غيث .

انحبست أنفاس عبد الحميد في صدره .

- ماذا قلت ؟

- الجثة لرجل اسمه سعيد غيث .

- هل مات في حادث ؟!

- يبدو أنه انتحر ٠٠ ترك رسالة للشرطة بتسليمك الجثة ٠٠ عليك مراجعة مركز الشرطة في مدينة ياكدندا ٠٠ هل تسلمت الإشارة يا سيد عبد الحميد ؟

قال مسلوب الإرادة :

- نعم ٠٠ نعم .

- إذن وقع هنا .

وقع عبد الحميد وأغلق الشرطي سجله ٠٠ جمع عبد الحميد أشلاءه المبعثرة وذهب إلى البيت ٠٠ بدل ثيابه على عجل محدثاً قسطاً كبيراً من الفوضى. راقبته زوجته وهو يلقي بالأشياء حيثما اتفق :

- خير ؟

- وهل يحمل رجال الشرطة أي خير على الإطلاق .

- إلى أين ؟!

- إلى ياكدندا ٠٠ من يصدق أن رجلاً مثل سعيد غيث ٠٠ ينتحر .

شهقت زوجته ودقت على صدرها :

- يا خيبتي عاللي نابو .

أجهشت بالبكاء وقد روعها الحادث ٠٠ لم يغب سعيد غيث وأولاده عن بالها طوال الليل .

(٢٢)

أوقف عبد الحميد سيارته على باب الملك بار الوحيد في ياكدندا ٠٠ وانتظر حتى انصرف زبائن الصباح الباكر ٠٠ يحملون الجرائد والحليب وأكياس الخبز ٠٠ دلف إلى الداخل واتخذ مجلسه أمام إحدى الموائد الملاصقة للجدار ٠٠ وطلب قهوته .

تفرس صاحب الملك بار في ملامحه ٠٠ وألقى عليه التحية بالعربية :

- صباح الخير .
- صباح الخير .
- الأخ جاي من ملبورن .
- نعم .
- عشان موضوع هالمعتر سعيد غيث .

هز عبد الحميد رأسه .

- أكيد إنت السلطان ٠٠ سعيد حدثنا عنك ٠٠ كان يعتز بصداقتك .
- كيف وقع الحادث ؟
- طلبت زوجته الطـــلاق ٠٠ وأرادت الاحتفـــاظ بالأولاد ٠٠ المحكمة استجابت لها ٠٠ أثبتت أنها وأولادها تلقوا الضرب على يدي سعيد ٠٠ القوانين هنا تحارب العنف المنزلي ٠٠ رفض سعيد تسليمها الأولاد ٠٠ أحضرت له الشرطة ٠٠ أخذتهم عنوة كتبوا عليه تعهداً بعدم التعرض لهم ٠٠ أنت تعرف مدى تعلق سعيد بأولاده ٠٠ على كل ٠٠ ليلة الحادث جاءني سعيد مضطرباً ٠٠ سلمني هذا المظروف لكي أضعه في البريد ٠٠ المظروف عليه اسمك وعنوانك .

ناوله المظروف وانصرف يخدم زبائنه .

أكمل عبد الحميد ارتشاف قهوته ٠٠ ووضع المظروف في جيبه .

في مركز الشرطة قابله ضابط شاب ٠٠ شرح له ملابسات الحادث ٠٠ اصطحبه إلى منزل سعيد ٠٠ كان السياج الحديدي حول المنزل ما زال قائماً ٠٠ كذلك صندوق البريد ٠٠ أما المنزل فقد استحال إلى كومة من الرماد .

أشار الشرطي إلى الركام :

- أشعل صاحبك النار في البيت والسيارة ٠٠ وأطلق على رأسه رصاصة من مسدسه ٠٠ حين وصل رجال المطافئ ٠٠ كانت النار قد طالته ٠٠ نصف الجثة قد تفحم ٠٠ وجدوا رسالة في صندوق البريد ٠٠ يشرح فيها أسباب انتحاره ٠٠ ويوصي بتسليمك الجثة لدفنها على الطريقة الإسلامية٠٠عليك قبل استلام الجثة ٠٠ أن توقع تعهداً بعدم مطالبة زوجته بأية مصاريف تتعلق بالجنازة أو الدفن ٠٠ كان هذا شرطها الوحيد .

- وحتى بدون هـذا الشـرط ٠٠ لن أطالبها بشئ ٠٠ إن سـعيد ابن بلدي وصديقي ٠٠ والواجب يحتم علي ٠٠٠

قاطعه الضابط :

- لا يعنينا أن نعرف ما يحتمه عليك الواجب ٠٠ نحن فقط نعرف ما يحتمه القانون

تنهد عبد الحميد وقال في نفسه :

- كلهم غز ٠٠ ومناقيرهم حديد .

وقع التعهد ٠٠ استلمت عربة دفن الموتى ما بقي من جثة صديقه ٠٠ لنقلها إلى مسجد عمر بن الخطاب في ملبورن ٠٠ انطلق السلطان يسابق الريح عائداً إلى مقر عمله ٠٠ ليرتب من هناك مراسم الجنازة والدفن .

سلم السكرتيرة قائمة بأسماء التنظيمات والأفراد لتبلغهم بالهاتف ٠٠ وإعلاناً لنشره في الجرائد والإذاعات العربية في أستراليا .

اتصل بالمسجد ليتسلموا الجثة ويودعوها في الثلاجة حتى بدء المراسم ..
بعد صلاة الجمعة في اليوم التالي .. وحين أنجز كل ذلك .. أخرج من جيبه مظروفاً فتحه وقرأ :

" أخي عبد الحميد :

في اللحظات القليلة الباقية لي في هذه الحياة التي لم تكن عادلة على الإطلاق .. اسمح لي أن أتوجه إليك دون الجالية والناس أجمعين .. فقد أحببت دائماً خصالك النبيلة .. ووطنيتك النابعة من القلب .. دون غرض .. ودون تشاوف .. أعرف أن مشاغلك كثيرة ولكن الرغبة الأخيرة لرجل من وطنك على وشك الموت..حرية بأن تأخذ القليل من وقتك واهتمامك .. سأطلعك على سر أبوح به لأول مرة .

قبل هجرتي إلى أستراليا عشت في ألمانيا .. تزوجت ألمانية كانت تعمل مندوبة مبيعات في مصنع مستحضرات التجميل الذي التحقت بالعمل فيه .

أنجبنا طفلة رائعة .. استقالت زوجتي للعناية بالطفلة .. ثم زعمت أنها وجدت عملاً آخر بعيداً عن المصنع .. كنت مبهوراً بالحضارة الغربية فتركت لها الحبل على الغارب .. لم أنتبه للتغيير الذي طرأ عليها .. لاحظت فقط أن رصيدها في البنك كان يتضاعف .. فسرت ذلك بالعمولات التي تحصل عليها .. لم أشك في أي شئ .. ولم أتدخل في تربية الطفلة .. إلى أن كان عيد ميلاد طفلتنا الخامس .. حضر أصدقاؤها وصديقاتها للمشاركة في الحفلة .. أسرف أحدهم في الشراب وصارحني بما زلزل كياني .. عرفت أي شئ كانت تبيعه زوجتي في السنوات الأربع الماضية .. ومثل أي رجل متحضر طلبت منها الطلاق .. على أن أحتفظ بالطفلة .. وافقت دون تردد .

في الصباح لم أجدها ٠٠ ولم أجد الطفلة ٠٠ بحثت عنهما عامين كاملين٠٠حملت صورهما وطفت في المدن أسأل المارة ٠٠ أعدو خلف كل امرأة تشبها ٠٠ وكل فتاة تشبه طفلتي ٠٠ ولا ينتهي بي اليوم إلا في مركز الشرطة ٠٠ بتهمة إزعاج الناس٠٠أنفقت جميع مدخراتي ٠٠ وصرت متشرداً أنام في الحدائق٠٠وتحت الجسور .

أخيراً قررت الهجرة إلى أستراليا ٠٠ لكي أبدأ من جديد ٠٠ إن طفلتي الآن في العشرين من عمرها وكلما أفكر بما آلت إليه في ظل والدتها ٠٠ أصبح على شفا الجنون .

في أستراليا كانت عيني مفتوحة على وسعهما ٠٠ حتى لا أقع ضحية مرة ثانية ٠٠ أردت أن أحصن عائلتي بالأخـــلاق الحميـــدة ٠٠ ربما كنت صارماً أحياناً ٠٠ ولكن كنت أتوخى مصلحة الأولاد ٠٠ أردتهم أن ينشأوا نشأة مثالية .

في العام الماضي اختاروني أحسن مدرس للكيمياء ٠٠ ليس في ياكدندا وحدها ولكن على مستوى القارة في نقابة المعلمين أصبحت نائباً للرئيس نتيجة لانتخابات حرة نزيهة ٠٠ لكن ما فائدة أن يكسب الإنسان العالم كله ٠٠ ويخسر نفسه .

إن جميع النجاحات في العالم لا تعوض الرجل عن النجاح في بيته .

لم أخدع أحداً ٠٠ الخداع ليس من شيمتي ٠٠ ليز كانت زميلتي في التدريس ٠٠ وقد عاهدتني على الالتزام بتقاليدنا وعاداتنا ٠٠ أسلمتْ قبل أن أتزوج بها ٠٠ وبعد الزواج عرضت علي أن تتحجب لكي تثبت لي حسن إسلامها ٠٠ لكنني كمسلم عصري متحرر ٠٠ لم أجد ذلك ضرورياً وقلت لها ليس المهم نوع الثياب ٠٠ المهم نوع السلوك والأخلاق .

حين وضعت ولدنا الأول طارق ٠٠ بدأت تتغير٠٠لعلك شاهدت بنفسك فصولاً من لجاجتها وتعصبها لمجتمعها وثقافته ٠٠حتى أصبح العيش معها لا يطاق

حين وصل الأمر إلى المحكمة ٠٠ استطاعت بسهولة أن تنتزع مني أولادي وأن ترحل بهم ٠٠ بزعم أنني أضربها وأتعسف في معاملتها ومعاملة الأولاد .

هذه بلاد التعددية الثقافية ٠٠ في الخطاب الرسمي فقط ٠٠ أما في الحقيقة فهم يحولون بيننا وبين أولادنا ٠٠ حتى لا ننشئهم على ثقافتنا ٠٠ تلك الثقافة التي يحاولون وأدها بكل السبل .

أول ما خطر لي هو أن أحمل بندقيتي وأطلق عليها الرصاص ٠٠ ثم أطلق على القضاة والشهود والحراس ٠٠ وكل أسترالي في هذه القارة ٠٠ وأنا بذلك لن أضيف شيئاً إلى سمعة فلسطين وشعبها الموسوم بالإرهاب من المهد إلى اللحد ٠٠ ولكنني فكرت في أن قائمة الذين يستحقون القتل طويلة لا تنتهي ٠٠ وما الفائدة ؟!

لم يعد لي من العمر ولا من الرغبة ما يكفي لكي أبدأ من جديد ٠٠ في عالم سلبني كل شئ ٠٠ حتى فلذات كبدي ٠٠ وهكذا اتخذت قراري .

ادفنوني على الطريقة الإسلامية ٠٠ غسلوني ٠٠ وكفنوني ٠٠ وصلوا علي ٠٠ واطلبوا لي الرحمة والمغفرة ٠٠ اكتبوا على قبري ٠٠ هنا يرقد لاجئ فلسطيني سلبوا منه الدنيا والآخرة " .

❋❋❋

في المقبرة شق عبد الحميد الزحام إلى أن وصل إلى حافة الحفرة ٠٠ لاحظ أنها أعمق كثيراً مما تعود على مشاهدته في بلاده ٠٠ ضاق صدره ٠٠ داهمته نوبة حزن اعتصرت قلبـــه ٠٠ اقشـــعر بدنه وأحس بالغثيان ٠٠ نظر حوله ٠٠ لم يكن حالهم بأحسن من حاله .

تذكر المعركة التي خاضها في المسجد حين رفض الإمام تغسيل الجثمان والصلاة عليه ٠٠ بحجة أن سعيد مات كافراً ٠٠ لأنه انتحر ٠٠ ورغم كل الحجج التي استخدمها فإن الإمام لم يتزحزح عن رأيه .

أخيراً اقتاد الإمام إلى غرفة جانبية ووضع في يده خمس ورقات من فئة المائة دولار .

قال الإمام :

– سأقبلها على أساس أنها تبرع للمسجد عن روح المرحوم ٠٠ سنقوم باللازم ٠٠ سنغسله ونكفنه وندفنه في مقبرة المسلمين ٠٠ ستدفع أنت النفقات التي يدفعها عادة أهل الميت .

وافق السلطان .

انتهت المراسم ٠٠ وغادروا المسجد إلى المقبرة ٠٠ حملوا التابوت المربوط بالحبال ٠٠ وأنزلوه شيئاً فشيئاً في الحفرة ٠٠ وقف عبد الحميد لكي يؤبنه قبل إهالة التراب عليه ٠٠ لم يؤبن عبد الحميد أحداً من قبل ٠٠ استجمع شجاعته :

– اللهم هذا عبدك وابن عبدك سعيد غيث ٠٠ أحب لقاءك فأحبب لقاءه ٠٠ ولا تُشح بوجهك عنه ٠٠ اللهم إنك وعدتنا على كتبك ورسلك ٠٠ إنك لا تغفر أن يشرك بك وتغفر ما دون ذلك لمن تشاء ٠٠ اللهم إنا نشـــهد أنه لم يشـــرك بك أحداً ٠٠ وأنه لم يخن وطناً ٠٠ ولم يمالئ عدواً ٠٠ وأنه جاهد في سبيل وطنه حق الجهاد

اللهم اغفر واصفح واعفُ وتجاوز ٠٠ اللهم اغسله من ذنوبه بالماء والبرد والثلج وارحمه برحمتك التي وسعت كل شئ ٠٠ الفاتحة .

قرأ الجميع الفاتحة والدموع في عيونهم ٠٠ قبض عبد الحميد حفنة من التراب أهالها على الميت ٠٠ فعل أصدقاؤه كما فعل ٠٠ ونفضوا أيديهم .

في طريق العودة همس قدري في أذن عبد الحميد :

– ليش ما اشتغلت إمام بدل هالضلالي شيخ الجامع ٠٠ شو هالخطبة الحلوة ٠٠ بيناتنا إنت رجل أعمال وإلا إمغسل أموات .

لم يكن بال السلطان رائقاً .. ليجيب على دعابة قدري .. كان متعباً ومنهكاً وحزيناً حتى الموت .

حين وصل في المساء إلى مكتبه لم يجد فيه أحداً .. تذكر أن ملك تنصرف مبكرة يوم الجمعة .. استعداداً (للويك إند) .

خلع الجاكتـــه .. وربطة العنق .. والحذاء وألقاهما جانباً .. استلقى على الأريكة وأغفى .. لم يدر كم من الوقت مر عليه .. حينما انفتح الباب .. دخلت ملك .. وقفت وراء رأسه .. قالت بحنان:

– لابد أن يومك كان عصيباً جداً .. مدت كفيها وأخذت تدلك أكتافه ثم رقبته .

لم ينهرها كما كان يفعل من قبل .. ولكنه تنهد .. تشجعت ملك .. فكت أزرار قميصه .. دلكت صدره .. أخذ يموء مثل هر في قر الشتاء .. فكت أزرار بنطاله .. حين انتهت منه .. لبست ثيابها وغادرت على عجل .. لتلحق بقطار السادسة .. تركته عارياً ممدداً على الأريكة .. أخيراً ثاب إلى رشده .. أحس بنفسه ملوثاً حتى النخاع .. افترسته تماماً ربيبة الحضارة الغربية .. تذكر ما قاله قدري (الحضارة الغربية لا تحاور الآخرين .. ولكنها تفترسهم) .

ارتجف عبد الحميد كمن أصابته البرداء :

– أخذوا الوطن .. والأرض .. والبيت .. وعظام آبائك وأجدادك .. ولاحقوك إلى آخر الدنيا .. لكي يأخذوا ما تبقى منك يا عبد الحميد .. طهارة القلب .. وطمأنينة النفس .

الطعنة جاءتك على غره .. لم تحتشد لها .. لم تدافع عن نفسك كما ينبغي .. استسلمت طوعاً .

كيف تنظر في عيني زوجتك .. كيف تســتطيع محاســبة أبنائك إذا حادوا عن جادة الطريــق .. ســقطت في الإثم .. اســتدع الآن كل حكمائك وأطبائك ..

اعرض نفسك عليهم واحداً واحداً .. يقول الإمام علي .. يقول الغزالي .. يقول ابن رشد .. يقول ابن حزم .. يقول ابن المقفع .. يقول الحارث بن حلزة .. يقول أكثم بن صيفي .

ما الفائدة .. أنت لم تأخذ بما قاله أي منهم .. الطعنة كانت سريعة ونافذة .. فهل استقبلتها بعقلك أو بقلبك أو بالاثنين معاً .

أغلب الظن أنك لم تكن في وعيك .. كانت تقلبك مثل كيس محشو بالقش.

كلا .. كنت في تمام الوعي .. اهتز جسدك بين أصابعها مثل بناء آل للسقوط .. داهمك شعور باللذة رج كيانك كله .. لقد رحبت بذلك .. شعرت بالنشوة .. لم تكف عن التنهد وطلب المزيد .. عاقرت جسدها .. كما يعاقر الكلب المسعور عظمة على باب المسلخ .

لن تعود أبداً بعد هذا اليوم كما كنت قبله .. هذه الطعنة .. سوف تصيبك بالعطب أمداً طويلاً .. تورثك جرحاً لا يبرأ .. وداء لا شفاء منه .

أحس بالبرد ينخر عظامه .. لابد أنها تركت النافذة مفتوحة .. هرع إلى الحمام .. أخذته نوبة قيئ شديدة .. أفرغ كل ما في جوفه .. ولكن جسده ظل يهتز .. وقف على المغسلة ونظر إلى المرآة .. كان بشعاً مثل شـــيطان .. وفي عينيه التماعة إثم أخافته كثيراً .. تأمل وجهه وهتف .. (أنت ساقط ورخيص إلى أبعد الحدود) .

غسل يديه ووجهه .. لبس ملابسه .. استدعى محاميه .. أمره بتصفية المكتب .. ووضع كل أمواله وديعة في البنك .. يصرف ريعها لعائلته .. سلمه توكيلاً باسم ولده الأكبر ناجي لكي يتسلم ريع الوديعة .. إلى أن يصل البنك إشعار آخر .. ورسالة إلى عائلته بأن لا يبحثوا عنه أو يقلقوا عليه .. فقد قرر أخذ إجازة طويلة يستعيد فيها توازنه النفسي .. أكد لهم أنه سيعود حالما تتحسن حالته

(٢٣)

طردت أستراليا السفير الليبي ٠٠ لم تعد الشيكات تصل بانتظام لمنال عنبر ثم انقطعت الشيكات تماماً ٠٠ أغلقت منال مقر المؤتمر الشعبي الأساسي وحلت التنظيم الذي كان سيدخل أستراليا عصر الجماهيريات العظمى .

أحصت منال غنائمها وقرت عيناً ٠٠ اشترت منزلاً فخماً يليق بعائلتها ٠٠ ومطعماً حديثاً سرعان ما أصبح قبلة جديدة لفرسان الساحة .

في المطعم الجديد تولت منال الإدارة ٠٠ أما أبو الصخور فلم يعد يعمل بيديه ٠٠ اكتفى بالإشراف وتوجيه الإرشادات للطهاة والسقاة ٠٠ ومسايرة الزبائن

عاد من جولته في المطبخ يشكو عماله لصهره أبو جيمي :

– لك هادولا جراسين ؟!

– هادولا زبالة ٠٠ أنا اشتغلت جرســون بلوكاندة الملك داوود بالقدس ٠٠ شو نظافة ٠٠ شو لطافة شو ظرافة ٠٠ الملكة نازلي إمو للملك فاروق ٠٠ نزلت باللوكاندة ٠٠ قالت للمدير :

– مش عايزة حد يخدمني غير الوله ده ٠٠ هوه إنت اسمك إيه ؟

قلت لها :

– خدامك صبحي .

أي أنا بهداك الوقت لميت بغشيش ما يعلم بو إلا الله ٠٠ الضباط الإنجليز كانوا يسرسبوا لعندها واحد ورا التاني ٠٠ وبالليل يا حرام تتحير مع مين بدها ترقص ٠٠ لغاية ما إجا النحاس باشا وصالحها مع فاروق وأخدها معاه على مصر

أهل فلسطين ظنوا النحاس جاي عشان ينصرهم عاليهود ٠٠ ويا عيني عاللي حصل في محطة غزة ٠٠ الناس باتوا طول الليل عالمحطة حاملين اللافتات والصور ٠٠ يهتفو بحياتو وحياة الملك فاروق ٠٠ الترين وصل الصبحية ٠٠ النحاس كان بالروب على المراية في المقصورة الخاصة بحلق دقنو ٠٠ سمحوا لرئيس بلدية غزة يقابل النحاس ويقدم له عريضة باسم شعب فلسطين ٠٠ النحاس شافو في المرايه وما اهتم ٠٠ إتشاغل عنو بحلاقة دقنو ٠٠ أول وش ٠٠ وتاني وش ٠٠

الترين أطلق صفارتو الأخيرة ٠٠ وبلش يغادر المحطة ٠٠ والنحاس ما اتسلم العريضة ٠٠ لبيس الباشا[1] ٠٠ حزن على رئيس البلدية وحب يساعدو ٠٠ قال للنحاس :

– يا رفعة الباشا ٠٠ ده رئيس بلدية غزة السيد رشدي الشوا .

لما النحاس سمع الإسم توقف عن حلاقة دقنو ٠٠ التفت فجأة ٠٠ وسأل رئيس البلدية :

– سامي الشوا ٠٠ أمير الكمان ٠٠ بيقربلك إيه .

صاحت به منال :

– حاجي تفنيص يا أبو جيمي ٠٠ خللينا نشوف شغلنا .

ثم نادت على أبو الصخور :

– فوت على المطبخ شوف الطلبيات وصلت ولا لأ .

---

١. لبيس الباشا : وظيفة ورثها المصريون عن الأتراك ٠٠ الخادم الذي يشرف على ملابس الوجيه .

دخل قدري يحمل زجاجة نبيذ معتقة .. حيا منال واتجه إلى حيث يجلس أبو جيمي وعمر الشحات حياهم واتخذ مجلسه .. وطلب من الجرسون أن يجهز له طعاماً .

فاجأهم ظهور ملك .. كانت ترتدي بنطالاً ضيقاً .. وعليه بلوزة بفتحة واسعة .. تظهر جمال عنقها وانبثاقة صدرها البض .. وبرفقتها أسترالي في السبعين من عمره .. نحيف طويل .. أشيب الشعر .. يلبس نظارات سميكة .. ويداري هزاله بمعطف فضفاض .

ملك عانقت منال وقدمته لها :

- هادا (البص) [1] .

ضربت منال على صدرها :

- الله لا يقيمك على هالخاتمة .

أشارت إلى أحد الموائد :

- كومي عظامو هناك .. بس إوعك يتلخبطو .. وبعدين ما تعرفي تصفطيهم .

ردت ملك بتحفز :

- هادا مليونير .. مانو شحات مثل صاحبك .. غمزت بعينها باتجاه عمر الشحات .

كان الشحات قد وسط منال لتقنعها بالعمل عنده في مدرسة الجمعية الإسلامية .. شريطة أن تتحجب مثل باقي المدرسات .. وافقت ملك على الحجاب .. ولكنها لم توافق على الراتب الهزيل الذي عرضه الشحات .

---

١. البُص : رئيسها في العمل .

قادت ملك فارسها الجديد إلى إحدى الطاولات ٠٠ ناولته لائحة الطعام ٠٠ تأملها عمر الشحات فسال لعابه ٠٠ همس لنفسه :

- راحت عليك يا عمر ٠٠ ما إلك في الطيبات .

غامت السماء فجأة في الخارج ٠٠ غابت الشمس تماماً ٠٠ سرت موجة مفاجئة من البرد .

عاد أبو الصخور وهو يجمع أطراف معطفه ٠٠ ويحكم أزراره :

- التقس مانو حلو اليوم .

سمعوا قصف الرعد ٠٠ تمتم عمر الشحات دون أن يُحوِّل عينيه عن وجه ملك :

- سبوح قدوس سبحت لك الملائكة .

قال له قدري :

- وينن الملايكة ٠٠ الله وكيلك من يوم رجلي ما دعست بهالبلد ما شفت إلا الشياطين .

أومأ الشحات باتجاه ملك ٠٠ تأملها قدري وعاد لارتشاف نبيذه :

- هادي ملك صحيح ٠٠ بس ما بتسبح إلا للمصاري .

- ليكون انت بتسبح الله يا قدري .

رد قدري مازحاً :

- إمبارح مسكت مرتي بتصلي ٠٠ سألتها شو عم تعملي ٠٠ قالت صليت ودعيت الله يوفقك ٠٠ قلتلها بلا ما تفكري الله فيني ٠٠ هلأ بقول هادا أنا زمان ساكت عنو ضحكا حتى دمعت عيونهما .

اقتحم فوزي خميس مطعم منال كالزوبعة ٠٠ واتجه إلى الركن اليماني كما يسميه ٠٠ قبل أن يلتقط أنفاسه أخرج من جيبه قصاصة صحيفة لبنانية أتى عليها حين من الدهر ٠٠ نشر القصاصة وأومأ إلى صورة لم تكن واضحة المعالم :

- هو بعينو ٠٠ عبد الحميد السلطان ٠٠ أنا غشيم عنو ٠٠ أي بطلعو من بين ألف

قال قدري وهو يرتشف نبيذه :

- والله اشـــتقنالو ٠٠ سنتين مرو على غيابو كأنهم مية سنة ٠٠ هات شو كتبوا عنو ٠٠ أكيد هادي قصيدة جديدة .

قرأ فوزي خميس بصوته الجهوري :

- استشهد أمس في جنـــوب لبنان في عملية فدائية رائعة البطل عبد الحميد السلطان ٠٠ كان الشهيد قد ارتدى حزاماً ناسفاً وفجر نفسه في دبابة إسرائيلية على المعبر ٠٠ وقد أعلنت عدة تنظيمات مسئوليتها عن العملية .

أجهش فوزي خميس بالبكاء ٠٠ ثم نهنه دموعه :

- أي بدنا نعمل حفل تأبين للشهيد ٠٠ ما شافت ملبورن أخوه .

قال الشحات :

- يا عيني شو رح تلمو تبرعات .

اختطف قدري القصاصة ٠٠ وقرأ الخبر ٠٠ اكتشف تلاعب فوزي خميس:

- عمى ٠٠ الاسم عبد الحميد السلمان ٠٠ منو السلطان .

رد عليه فوزي خميس :

- شو يعني ٠٠ غلطه مطبعية ٠٠ المهم الصورة .

قال أبو الصخور :

- ليكون هادا إسمو الحركي .

رمى قدري القصاصة على طول يده ٠٠ فالتقطها أبو جيمي ٠٠ حدق أبوجيمي في الصورة :

- والصورة كمان مش واضحة ٠٠ تضرب يا فوزي ما أكذبك ٠٠ ولك أنا عندي الخبر اليقين .

حملقوا فيه كأنه سيخرج الأرنب من كمه ٠٠ قال أبو جيمي دون أن يطرف له جفن :

– السلطان محبوس في مصر ٠٠ راح يأسس تنظيم فدائي لتحرير فلسطين من القاهرة ٠٠ قلب العروبة النابض ٠٠ المصاروه كشفوا أمرو ودكوه في الحبس ٠٠ خيي شافوا بيكسر حجار في أبو زعبل .

انتفض عمر الشحات :

– بس إنت وهوه ٠٠ بلا كذب ونصب وتهويش ٠٠ عبد الحميد حسب معلومات دقيقة وصلتني من كابول ٠٠ تطوع للجهاد في أفغانستان ٠٠ وهو يقود فصيلاً من المجاهدين العرب هناك .

وضع قدري كأسه على الطاولة بعصبية :

– ما فشرت ٠٠ عبد الحميد رجل تقدمي ٠٠ ولا يعقل أن يحارب ضد الاتحاد السوفييتي ٠٠ محرر الشعوب من الاستعمار ٠٠ والرأسمالية ٠٠ وتجار الدين أمثالك .

اقتربت منال عنبر وأسندت مرفقيها على ظهر الكرسي الذي يجلس عليه قدري :

– عبد الحميد اعتكف في كوخ منعزل ٠٠ على شاطئ إحدى جزر الباسفيك النائية ليحقق حلمه ٠٠ قال لي :

(يا منال أمنيتي أصير روائي ٠٠ وأكتب رواية عن هالجالية) .

عبد الحميد بكتب رواية عنكم ٠٠ رواية رح يحكي فيها كل شي ٠٠ واللي على راسو بطحه يحسس عليها .

أطرقوا واجمين .

صب قدري ما تبقى من زجاجته في الكأس الذي أمامه :

- شو ما قلتو عن عبد الحميد بضل زلمة آدمي وبنْشَرَبْ كاسو .

رفع الكأس عالياً تحية لصديقه وهتف :

- السلطان .

أفرغ الكأس في جوفه دفعة واحدة .. نحاه جانباً وتابع :

- هللأ صار لازم نطوي هالصفحة .

مال على أذن أبو جيمي :

- شو .. ما برم الدولاب معك ؟

نفث أبو جيمي دخان أرجيلته :

- ضايل تكه .. تكه واحده .

صدر للشاعر

نـــوديـــت بـــاســـمي

ديوان شعر

دار الفارابي

بـــيـــــروت عـــــام ١٩٨٠م

❋❋❋

العنقـــاء (النسخة العربي)

روايـــــة

دار سبيل للنشر

ملبورن ــ استراليا عام ١٩٨٩م

❋❋❋

العنقاء (النسخة الإنجليزية)

ترجمت على نفقة وزارة الثقافة الأسترالية

وصدرت عن دار *PAPYRUS PUBLISHING HOUSE*

ملبورن ــ أســـتراليا ١٩٩٤م

❋❋❋

متـــى تُـــرِكَ القطـــا

ديـــوان شـــعر

دار النورس للنشر

غـــــزة ــ عـــام ١٩٩٦م

❋❋❋

ديـــرة عشـــق

ديوان شعر بالعامية الفلسطينية

دار النورس للنشر

غـــــزة ــ عـــام ١٩٩٦م

الخـــل الـــوفـــي

روايـــــــة

دار النورس للنشر

غـــــزة ــ عـــام ١٩٩٧م

❋❋❋

زهـــرة الحبـــر ســـــوداء

ديوان شعر

دار النورس للنشر

غـــــزة ــ عـــام ١٩٩٨م

❋❋❋

الغـــــــول

روايـــة

دار النورس للنشر

غـــــزة ــ عـــام ١٩٩٩م

❋❋❋

طـــائـــــر البـــــرق

روايـــة للناشـــئين

دار النورس للنشر

غـــزة ــ عـــام ٢٠٠٠م

للشاعر تحت الطبع

زَقْــزَقْ رَقــَصْ

ديوان شعر بالعامية الفلسطينية

❋❋❋

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

ص.ب 507 تليفون 2872443 08 فاكس 2872441 08

غزة ـ فلسطين ـ الطبعة الأولى 13 / 3 / 2001

* هذه الرواية أحدث ابداعات عبد الكريم السبعاوي الذي قرأناه في ملحمة أرض كنعان بأجزائها الثلاثة

* البحث عن الترياق ... ملحمة الهجرة والاغتراب وحوار الحضارات ... إنه موضوع الساعة الأكثر سخونة والأكثر خطورة .

تابع دينيس :

الأمر ليس بهذه البساطة ... الحضارة إرث إنساني يشارك فيه الجميع ... وحضارتنا هي محصلة لكل الحضارات التي سبقتها ... لقد أخذنا نحن الغربيين الكثير من حضارتكم العربية

قال عبد الحميد بأسى :

– دعني أشرح لك يا برفيسور ... ما الذي أخذتموه منا وما الذي عجزتم عن أخذه ... في حضارتنا العربية ... القوة مقرونة بالرحمة ... والقدرة بالعفو ... والحرية بالمسئولية ... والعلم بالخلق ... أما عندكم أنتم ... فالقوة مجردة من الرحمة ... والقدرة معزولة عن العفو ... والعلم مبتور عن الأخلاق ... لم يعد لديكم كوابح ... فأوصلتم العالم إلى الجحيم الذي هو فيه .

مشكلة الآباء في هذه الديار أنهم ديناصورات منقرضة ... أعني من عصور ما قبل الثورة

– الثورة الفلسطينية .

– الثورة الجنسية يا أحمق .

تابع صديقه :

– أتعرف ماذا يسمون هذا في الجامعة ؟... (أشار إلى ذكره ...) يسمونه الحزام الناقل ... لكثرة البنات اللواتي يطلعن عليه وينزلن عنه ... لم أعد أتشدد في مسألة الجمال ... شو ما إجا مع العافية امليح .

هذه بلاد التعددية الثقافية ... في الخطاب الرسمي فقط ... أما في الحقيقة فهم يحولون بيننا وبين أولادنا ... حتى لا ننشئهم على ثقافتنا ... تلك الثقافة التي يحاولون وأدها بكل السبل .

شركة مطابع الجراح ـ غزة هاتف ٢٨٠٥٨٨١ـ٠٨